
الضريح
كرم صابر
روايات
مدونة ابو عبدو
أبو عبدو البغل
الطبعة الثانية

الضريح

رواية

كرم صابر

الضريح

كرم صابر

الطبعة الأولى : ٢٠١٠

الطبعة الثانية : ديسمبر ٢٠١١

رقم الإيداع: ٢٠١٠/٢٠٩٠٢

الناشر

محمد البعلى

المستشار الفنى

أحمد الزغبى

دا صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات

٥ش المسجد الأقصى – من ش المنشية – الجيزة –ج م ع.

كرم صابر : أديب مصرى نشأ فى مدينة الوراق وقت أن كانت قرية يعمل أهلها بالزراعة قبل أن يدمجها الزحف العمرانى بالقاهرة ، وبدأ العمل بالمحاماة عام ١٩٨٩ ؛ نشر العديد من الأعمال السردية منها المتهم وأين الله ورائحة الأنوثة وعشق الحياة وفؤاد المدينة وطائر النسيان ومريم العذراء وكلاب السكك.

طبعة إلكترونية : ٢٠١٥

إلى"مينا ملاك"، و"أحمد صبحي"، و"زعبولا"، و"إبراهيم بليلة"، والقس "فايز"، و"أبو عيشة"، والشيخ "محمود عتابي"، والأب "بيشوي".. الذين عاشوا وماتوا دفاعًا عن الضمير.

العالم الأول

التكوين

الحكايات تملأ البلدة عن طائر الموت الذي نزل بالجرن وخطف "سعدية بنت حسانين" وطار وسط ذهول الحاضرين، أطلق "محيسن العربي" أعيرته النارية ليوقف الغدر، فعاد الرصاص إلى صدره ومات، صرخت زوجة "العربي": مالنا إحنا ومال سعدية يا خوي.. أهو قتلك يا ضناي.

كفَّن الناس جثته، ورفعوا روحه وجسده فوق رؤوسهم، وبكو ؛ لأن حامي البلدة مات غدرًا، قال الشيخ: من يتدخل في مشيئته سيلقى حتفه، يجب تقبل حكمته وقسمته دون اعتراض.

البلدة في هذه الأيام كانت تمرح بذكر الله حول ضريح "سيدي عبد العزيز"، ويتبارك الناس به، ويطالبونه بالصفح عن ذنوبهم، ويناشدونه بإنزال بركاته؛ لتخرج بذرة ثمار البطاطا، وتلد الأبقار عجولها الطيبة، وتتزين النساء برحيق أشجاره، وتمتلئ السماء بقوة وعزيمة الحب الذي لن ينضب أبدًا.

منذ اختطاف "سعدية" انتشرت العفاريت بملابسها السوداء وعيونها المغلولة في الحواري والشوارع لقتل أخوات "سعدية"، كنا نختبئ منهم خلف مقهى "السيد" حتى لا يخطفونا، وتقذفهم "جمالات" الشقية بالطوب وتختفي خلف سور الجامع وننادي عليها حتى لا يلمحوها.

عيونهم تبحث عنا، فنختفي خلف الأشجار، فيطيروا بعيدًا دون أن يخطفوا أحدًا منا.

وفي يوم صنع "زعبولا" شبكة من السلك المقوّس وملأها مسامير، حتى إذا نزل طائر الموت أو العفاريت أغلقنا الفخ والشبكة عليهم وحبسناهم؛ وحين مرت العفاريت أغلقنا فخ الشبكة وحبسنا ثلاثة منهم، وتحول أحدهم إلى فأرٍ، والآخر لقطٍ، والثالث لأرنبٍ أسود، وذهبنا للمقهى مبتهجين بصيدنا الثمين.

شيخ الجامع، و"فايز" القسيس كانا مشغولين بلعب "الدومينو"، وصرخنا فيهما: حبسنا العفاريت بالشبكة. ضحكا عن آخرهما وقالا، بعد أن فكا الشبكة وأطلقا القط وأرنب صديقة وقتلا الفأر: يا ولاد الكلب ما عفريت إلا بني آدم.

لكننا، نحن الذين شاهدنا بأم أعيننا طائر الموت يخطف البنات والخلق مذهولة، والذي حاول منهم إنقاذهن تفَّجر صدره وسُرقت روحه، نحن الذين سمعنا شيخ الجامع في اليوم التالي يحكي على مصطبة الكنيسة لـ"فايز" القسيس عن القوة الخارقة لطائر الموت، وكيف يمكنه حمل بلدة بأكملها والطير بها وتفجيرها في السماء في غفلة من الزمن.

يومها قال القس: إن طائر الموت لا يمكنه أن يفعل ذلك إلا بوشاية أحد الأهالي، وقال "أبوعيشة" خادم الضريح: إن بركات . ولي الله . سوف تحمينا طوال العمر، وإن رائحة أشجاره تمنع الشر والأذى من الفتك بالبلدة.

أثناء استمتاعنا بحكاياتهم قذفتنا "أمينة بنت حمدان" الطيب بـ"زلطة" أصابت عين "سالم" فنزف الدم منه وبكى. حاول "زعبولا" أن يمسك بها ولطمها على خدها حتى لا تؤذي أحدًا مرة ثانية. وبالرغم من أن "مينا" كان يحاول أن يمنع الدم النازف من عين "سالم"، فإن "القس فايز" جرى وراءه وصرخ : اخس عليك يا فاسق. أخذها القس في حضنه، وحاول الشيخ تهدئتها ليعودا لاستكمال حكاية طائر الموت والضريح، إلا أن الشمس قاربت على الغروب وحان موعد أذان المغرب، فاستأذن الشيخ من القس وقال: لا أعرف متى سيتركنا الناس في حالنا لنستمتع مثلهم بالحياة؟!

في يوم لم ننسه وأثناء جمعنا فضلات الخشب من ورشة والد "مينا"، لنصنع بيتًا مشتركًا لله، وحين قاربنا على الانتهاء من صنعه ولم نعمل حسابًا للسقف ولا الشبابيك والأبواب، قالت "جمالات" الشقية: يجب أن نترك بيوت الله مفتوحة حتى ندخلها أو نخرج منها ونلعب فيها "الاستغماية" و"العسكر والحرامية" دون أن يمسكنا أحدٌ، لحظتها هبت عاصفة قوية، فهدمت بيت الله وأعمى التراب أعيننا.

قال "زعبولا" الذي جرى خوفًا من شدة الريح وهو يشير ناحية الغرب: الشيطان يا عيال اجروا، اختبئوا.. لكن "جمالات" فوجئت بـ"أمنا الغولة" تمسك بيديها وتضع مسمارين بقدميها وتمنعها من الجري، كانت تختبئ بالريح، فهدمت بيت الله الذي كتبنا على بابه بفضلات الأخشاب: "منزل جمالات للعبادة". صرخت "جمالات"

مغْلوقة العينين مستغيثة ، ولولا أن "أم عويس" لحقتها، لكانت "أمنا الغولة" قد خطفت "جمالات" وفقدت بلدتنا في عام واحد، بسبب طائر الموت وأمنا الغولة، أجمل بنات البلدة.

أمسك عمي "إبراهيم بليلة" بوجهه المشع بياضًا عصاته ووقف وسط الشارع الرئيسي الذي يقسم البلدة، وصرخ بالشيطان ليرحل فهدأت الرياح وسقطت الأمطار لتغسل التراب الذي انتشر فوق الملابس والبيوت والمواشي، واحتفلت البلدة في نهاية اليوم برضاء السماء علينا.

تقابلنا عشرة أطفال عند ساقية عمي "غنيم"، نستمتع بالمياه ونتزحلق في الشوارع لتبتل ملابسنا وأجسامنا بالوحل، ونزلنا على حائط الساقية لنغتسل، كانت الجِنيّة تنتظرنا عند مدخل الساقية، وحين نزل "أحمد صبحي" على الحائط الذي يفصل جانبي الساقية، سحبته من ملابسه لقاع الساقية، فصرخنا واجتمع الناس وجاء شيخ الجامع و"فايز" القسيس وعمي "إبراهيم بليلة"، وطلبوا من "علي الغواص" أن ينزل لقاع الساقية ويبحث عن صديقنا، قال بعد ثلاث ساعات وبعد أن أعياه البحث: لا يوجد إلا الأسماك، ولابد أن الجِنيّة أخفته في كهفها، كان "أحمد" أجمل الأطفال، لن أنسى أبدًا شعره الأصفر، وعينيه العسليتين، وطريقته الهادئة في الكلام والمشي، كان يحبنا جميعًا.

قلت لـ"سالم" و"زعبولا" و"عمر" و"مينا" أصدقائي: لو أن عمي "إبراهيم بليلة"، مؤذن الجامع، موجودٌ معنا لخافت الجِنيّة وتركت "أحمد" ولم تتمكن من خطفه.

بكى "مينا" وقال: إن الملائكة حزينة علينا، فبالأمس طاروا فوقنا ليواسونا، وقالوا بصوتٍ حنون: البقاءُ لله يا أطفالي المساكين.. قال "عمر": لماذا يترك الله الأشرار يخطفون الأطفال؟.. أكد "زعبولا" أن الملاك الطيب استطاع أن يهزم في النهاية "أمنا الغولة" والجن الأزرق والشياطين، وأن يطردهم للعوالم الأخرى، ولم يتمكنوا من العودة للعيش معنا مرة أخرى، لأنهم ارتكبوا في الماضي خطايا لم يغفرها لهم الله، فبعد أن تجرؤوا عليه وطعنوه وسخروا منه، وقالوا له: أنت في سمائك تملك كل شيء، لكننا هنا على الأرض نتحكم بمصير الناس.

تحايل الأشرار والشياطين على الملائكة والأخيار وخطفوا منهم مفتاح الحياة الذي مكنهم من التحكم بمصيرنا، لكن الرب الطيب جمع جيشًا كبيرًا من الناس الأخيار والملائكة الطيبين، واستطاع أن يهزمهم ويسترد مفتاح الحياة مرة أخرى، وخرجوا عن نطاق رؤيتنا ولم يظهروا بعد ذلك إلا مع حلول الظلام. لذلك؛ كان "زعبولا" يشعل النار دائمًا إذا شعر بالشر يقترب، كانوا يخافون منه لأن ملاك الرب الطيب لم يتركهم أبدًا.

أذهلنا "أبورواش" ابن العائلة الكبيرة من طرقه الخبيثة لهدم بيوتنا وحقولنا التي كنا نرسمها على أرضية الحارة.. كان يتفنن في صنع آلات الشر مثل النبلة والثعلبة ليخيفنا، لكن "زعبولا" كان يضربه بقوة ويطرده من الحارة.

يجلس آخر الليل يفكر مع الشيطان في مجرى جديد ليهدم ما بنيناه طوال النهار، تشفق عليه "جمالات" الشقية وتقول: " ستلعب معنا ولكن لا تؤذي أحدًا كي تدخل قلوبنا " ، ينظر إليها ويقول في صمت: " غدًا سأسرق أحلامكم ووردكم وأنزع منه رائحتكم " ، تتركه "جمالات" وتعود إلينا وتقول: "لا تقسو عليه يا مينا".

الدنيا كانت ملك قلوبنا، ورغم صغر سننا لم نعجز أبدًا عن فهم ما يجري حولنا في الحقول والمراوي والبيوت، لم يمنعنا ارتفاع السماء من مشاهدة قصر الله الكبير المحاط بملايين الملائكة يخضعون لأمره ويتلفحون بالبياض ويشع من وجوههم نور يعبر عن المحبة.

قصر الرب النظيف يمتلئ بكل الخيرات والفاكهة، لم يكن الرب وملائكته ينامون ويحتفلون دائمًا بالأعياد، اللهم إذا وقعت مصيبة على الأرض بسبب الشياطين، فإن الله يواسينا على ما ألم بنا.

كنا نعلم أن الشياطين والجن الأزرق الذين لا تراهم عيوننا يعيشون معنا، نحس بهم كلما وقعت مصيبة بالبلدة.

واستطاع الشيطان الأسود في هذا اليوم أن يسيطر على سماء البلدة، وأجبر العم "سيد" على ذبح "حنوس" ابن أخيه عند قهوة "حسن الجحش" حين أوشى الشيطان له بمعاشرة زوجته، وحين عاد من عمله بحث عن بلطته، وسألته زوجته: عايز البلطة ليه يا سيد؟

قال: سوف أقتل عشيقك "حنوس" لأحرق قلبك.. وناولها في وجهها بكف يديه فوقعت على الأرض، استغاثت بالناس ليقصر الشر، إلا أنه داس على فمها بقدمه وقال: لن أقتلك يا فاجرة حتى تشاهدي دمه ورأسه ولسانه المقطوع، الذي كان يلحس به أفخاذك فى زريبة المواشي. وتركها كالمجنون ذاهبًا لقهوة "الجحش"، حين قابله "حنوس" ابن أخيه عاونه الشيطان على رفع يديه بالبلطة ليقطع رأسه في توحش، ولم يكتفِ الشيطان بفعلته، بل أجبر "سيد" بتشويه رأسه، وقطع لسانه وعضوه الذكري، وذهب عاريًا لمنزله وخلطهما بروث البهائم بالزريبة، وربط زوجته بأحد أعمدة المنزل لتشاهد توحشه، وبعد أن توسع مجرى الشر داخله أمسك السكين وقطع رقبة "هنية" زوجته، وحين جاء العساكر ليقبضوا عليه، قاتلهم حتى مات.

كنا على يقين بأن الجن الأزرق الذين طُردوا من الجنة، بعد أن فُقد الأملُ في إصلاحهم، امتلكوا قوة سحرية زائفة هي مصدر الشر الذي بدأ يزيد يومًا بعد يوم بالبلدة، بعد أن تركنا طفولتنا وبراءة عيوننا في حصالة البيت العائلية وخرجنا لملاقاة أقدارنا في العالم الواسع.

التحول

يصحو "سعدة" الشاب اليافع كباقي الفلاحين مع شروق الشمس؛ باحثًا عن الرزق المنثور في أنحاء الأرض. لم يهتم كثيرًا بالغل والحقد الذي ورثه عن أبيه بسبب مشاجراته مع جيرانه أبناء عائلة "الزهرانة" الأشرار، بعد أن هيأ لهم الشيطان أن جبروتهم وقوتهم يمكن أن تزلزل الأرض، فقاموا غدرًا بوضع رأس "أبوسعدة" في وحل الترعة.

ينقذه من الموت عمي "إبراهيم بليلة"، مؤذن الجامع، حين سب الشيطان الذي استغل جهلهم وضعفهم، وصوَّر لهم أنه بإمكانهم أن يملكوا الأرض بتوحشهم، مع أنهم لو نظروا مرة واحدة لبيت الله بعد السماوات وأحسوا بسفينة المورد والرزق الذي يلقي به كل يوم في الصباح على الناس؛ ليزرعوا الأرض ويحصدوا الخير، لارتدعوا ولم يستسلموا لظلم أنفسهم.. حين كان صرخ فيهم: "عيب يا واد ارجع"، كانت أيديهم المربوطة برقبة "أبوسعدة" تنحل؛ لأن "بركات" عم "إبراهيم"، وكلامه أوامر يجب أن تطاع.

وحين يتداول الناس هذه القصة يمتلئ قلب "سعدة" بالغيظ والغل، ويتمنى في هذا الوقت أن يقابلهم؛ ليفصل رقابهم عن أجسامهم. ومع ذلك، فحين يشاهد شروق الشمس، وهو يمشي وراء الجمل ويسحب الجاموستين، يمتلئ قلبه بالحب مرة أخرى، ويقول: " تقتلهم إيه يا واد دول أهالينا ".

يطبطب "إبراهيم بليلة" عليه حين يقابله ويحضنه، ويقول: "المهم أن تنتج أرضك أفضل المحاصيل؛ ليأكلها الناس ويدعوا لك".. "يا سعدة إتلاف وتقليع الشجر وتبوير الأرض يتم في لحظة، بينما زراعته وحصاد الثمار الطيبة يستغرق شهورًا".

في الأيام الأخيرة التي لم نشاهد "سعدة" يستقبل شروق الشمس، كنا نعرف أن مصيبةً جديدة سوف تحل على البلدة، كنا نعلم أن الشيطان لو دخل قلبه لن يستطيع أحدٌ إخراجه قبل أن تنهار الدماء . وبالفعل، فقد شاهدناه عند الضحى عاريًا ويتدلى قضيبه وأردافه في بجاحة لم تعتدها بلدتنا، ويمسك سكينًا كبيرًا، ويقول لكل من يقابله: سوف أذبحهم اليوم ، ومشى عاريًا من أمام منزله مارًا بكل حواري وشوارع

البلدة؛ ليعلن للجميع أنه سيذبح جيرانه الذين أهانوا أباه في يوم ما، حاول الناس إعادته لرشده، لكنه رفض توسلاتهم وهددهم إذا اقتربوا بقطع رؤوسهم.

صرخت أمه وهي تجري وراءه: يا ابني حرام عليك ده أنت أكبر إخواتك.. يا ابني وحل إيه اللي حطوا راسك فيه أنت وأبوك.. يا بني ارجع.

يشتمها بأقذع الشتائم لتعود، ولم يتمكن ملاكها الطيب من إعادته، فصرخت: فينك يا شيخ إبراهيم تحوش المجنون اللي هيودي نفسه في داهيه.

وصل "سعدة" لأراضي جيرانه، أبناء عائلة "الزهرانة"، وكانوا قد علموا بخبر خروجه عاريًا لأخذ ثأر أبيه، فاستعدوا لقتله. النسر الذي كإلهٍ للشر عاد وركب دماغه وتهيأ له أنه سوف يقتلهم جميعًا بسكينه ويتفادى رصاص بنادقهم، ولولا صرخة أم "سعدة" ليلحق "إبراهيم بليلة" بابنها في اللحظة الأخيرة، لكنا فقدنا شابًا كان يبهج القلب ببشرته الرائعة المملوءة ببراءة وهو يضحك ويتلقى رزقه الصباحي مع كل شروق.

لكن عائلة "الزهرانة" الجبابرة الذين أهانوا "أبوسعدة" لم يتركوا الحادث يمر، فقد اتهموا "سعدة" بأنه أتلف زراعاتهم ، وجرح بعضهم نفسه وذهبوا للعمدة بشهود وأدلة، أهمها سكينه الكبير الذي كان يحمله، وسحبوه عاريًا كما ولدته أمه للسلاحليك؛ ليحبس ثلاث سنوات ويعود إلينا شخصًا آخر فقد معرفة ملامحنا وأسمائنا.

تحولت البلدة التي نست أيامها الأولى وغرقت بالوحل، وفقدت ذكرى الرجال الأوائل ورفضت استلهام مجدهم وحبهم وعشقهم للحياة، هؤلاء الأجداد الذين رفضوا أن يتركونا ودُفنوا وسط منازلنا، وأوقفوا ما يملكون للاحتفال بموتهم وميلادهم في الأعياد وليالي المولد الكبيرة التي كانت البلدة تقيمها حول أضرحتهم كلما أمطرت السماء أو توقفت أفعال الشياطين، كانت بيوت أولياء الله تملأ الحواري، ومحاطة بأشجار الشمام وذقن الجن والورد الأبيض، ليخرجوا مساء كل يوم من أضرحتهم، ويعيشوا معنا، ويبتهجوا بنا، ويمنعوا عنا الأذى والشر.

تتلاشى ببطء بعد كل حادثة تمر أيام البراءة ، لكننا لم نتصور أبدًا أن يظهر من بيننا أبناء رجال يتركون لحاهم لإرهابنا، ويخيفون الأطفال بدعوى أنهم يَمْثُلون

الرب وجبروته وناره، وتاه الناس بعد أن عاد "كليب"، الذي كان أبوه قد أرسله ليتعلم بمدرسة الأمل في المدينة القريبة، مطلقًا لحيته ويلبس جلبابًا قصيرًا مثل الأراجوز ويهددنا بقوة الرب وتوحشه.

كنا لا نصدق تهديداته وتخاريفه؛ لأننا لم نتصور أبدًا أن الرب، الذي يسكن بعد سبع سماوات وسط الحدائق المملوءة فاكهة وعنبًا ويشع وجهه نورًا، يمكن أن يتحول لشرير كل أمله أن يحوّل البشر لقطعان شيطانية يفجرها بالجحيم، لتلتهم "أمنا الغولة" عظامهم لرفضهم لبس الحجاب، أو إطلاق اللحية، أو الركوع للتظاهر بالإيمان.

لم نكن نتصور أبدًا أن الله الجميل، الذي لم يعرف أبدًا الكره والغل والحقد والأذى، يمكن أن يتحوّل لشيطان كما صوره "كليب".

لكن "مينا" قال إنه سمع من الأب "بيشوي"، يوم أمس، أن الرب راهن بقوة على الحب الذي زرعه بين البشر، وملأه الغرور بقدرته على محو الغل والحقد والشر بألوان ورائحة ورد جناته، ولما خالف البشر وصاياه وتعاليمه، ومسحوا بميثاق الأخلاق الذي زرعه بداخلهم برازهم، ترك الدنيا وانعزل بالسماء السابعة، ومن وقتها والشيطان يعبث بحياتنا ويتحكم بمصيرنا.. وهرب الملائكة الطيبون مع الرب بعد أن فزعوا من شر البشر حين شاهدوا "سعدة" يلقي باللبن في وحل البهائم بعد أن تشاجر مع أمه وخرج عاريًا ليقاتل أبناء عائلة "الزهرانة"، وأكد أن روايات "كليب"، عن توحش الرب وناره وكرهه لعباده، يمكن أن تكون حقيقة إذا فقدنا الإيمان بالحب.

لكنني أبدًا لم أصدق تلك الحكايات وكنت أعتقد أن "كليب" يؤلف هذه الحكايات مع الشياطين في زوايا الشر التي كانت تجري بداخله ويرثه عن عائلته، التي طالما كانت مصدرًا لكل المصائب التي مرت بها بلدتنا.

حين علمنا أنه هرب لبلاد بعيدة؛ ليحارب مع المسلمين ضد الكفار ويجاهد في سبيل الله ويدافع عن الحق، كنا ننظر إلى بعضنا ونقول: أيُّ حقٍ يمكن أن يدعمه هذا الشرير، إنه لا يملك سوى الترويج لنار الله وجبروته.. هل هذا الحق الذي يمكن أن ندفع حياتنا ثمنًا له؟!

ورغم ذلك كنا نحس وقتها بأن همًا كبيرًا انزاح عن قلوب البلدة؛ لأننا لم نعد نسمع انتقاد سعادتنا وبهجتنا التي كانت هي الباقية لنا في ظل انتشار أصحاب اللحى، وبناء قسم جديد للشرطة تمر عرباته بصوتها المزعج مع شروق الشمس كل يوم، فيهرب الناس كالسحالي؛ خوفًا من مداهمتهم وهم يبتهجون.

الانحطاط

بنى العسكر والضباط عند مدخل البلدة مبنى كبيرًا، وصنعوا القيود والأبواب الحديدية على مداخله الكثيرة، وأقاموا فيه بعد أن مات عمدة وشيوخ البلد.

بعد انتشار العسكر خيّم الحزن على الناس الذين عاشوا عمرهم يستقبلون الحب والرزق مع شروق الشمس، ولم يعرفوا إلا "سيد" المخبر كرمز للسلطة، لكن أن يأتي مئات العساكر والضباط ويستوطنون بمدخل البلدة ويقيمون الأبراج العالية حول مداخلها المختلفة؛ ليراقبوا خروج أنفاسنا من قلوبنا، ويكتبوا التقارير عن عددها وصوتها، فلا جدال أن البلدة تحولت لسجنٍ كبير.

بحث الضباط عن أبناء القهوجية والسماسرة، وشكلوا منهم فرقةً للتلصص على الاهالي، لا ينسى الناس كيف قام "رضا" المرشد بقتل "حسانين زليخة"، كي تتهم الشرطة بلدة بأكملها في جريمة تعلم أن مدبرها ومنفذها أحد رجالها، وقد وجدته الشرطة مقتولاً بالترعة الكبيرة، ولم يهتم أحدٌ بإخراج جثته التي تعفنت، إلا بعد أن جاء البوليس واتُّهِم الجميع بمقتله.

حققت الشرطة الجديدة مع الأهالي وفتحوا لبعضهم ملفات وصنفوهم كـ"مسجلين خطر" في قضايا الإرهاب والمخدرات والسرقة والنشل والتسول والدعارة والسلاح، وتحولت اغلبية جموع الناس التي كانت تنعم بالأمان إلى مجرمين ومطاردين.

في هذا اليوم قالت أمي: لم يتمكنوا من ذلك لولا أن "سيد" المخبر ساعدهم في اقتفاء الأثر، لأنه الوحيد الذي كان بيننا ويعرف مهنة كل واحد فينا، وأين يقضي باقي يومه.

أكد "مينا" حين قابلته، بعد أن أخذوا أباه وأعمامه كمتهمين وأفرجوا عنهم بعد عدة أسابيع، أن وجود "سيد" المخبر بيننا لم يكن كافيًا ليقوموا باغتيال وحصار بلدتنا. إن الغل والحقد الذي كانت تزرعه "أمنا الغولة" و"أبو النطيط" و"الجن الأزرق" بقلوب الأهالي، وتركنا لأحفاد الشياطين؛ ليستوطنوا عامًا بعد عام على مداخل البيوت ويهيمنوا علينا ويفسدوا أرواحنا الطيبة؛ لنتتبع شرهم، أدى لانحطاطنا وتحولنا لآلاتٍ صماء تردد كلام المآذن الجديدة والأبراج العالية التي تملأ قلوبنا بالحزن كل

يوم. كل هذا سهَّل مهمة القبض على الأهالي، وفتح ملفاتٍ لكل واحدٍ فينا، وتصنيفنا حسب فئات الإجرام .

الوحيد الذي كان يشارك ويفهم مجرى وتطورات الأحداث هو "أبورواش" صاحب الجمعية الجديدة، ففتح هو الآخر سجلات أخرى لجمع أسرار بيوتنا، وحوَّل أسماءنا لأرقام؛ لملء ملفات جمعيته بأحلام مئات المحتاجين والضحايا في خدعة كبيرة بأنه سوف يحققها لهم، وبنى مقرًا كبيرًا بجوار القسم ليتداول معهم المعلومات لاغتيال طموحات الأهالي، ثم تزوج "جمالات" التي كانت أجمل بنات البلدة، والتي لولا رقة "أم السعد"، يوم الرياح العاتية، لكان الجن قد خطفها وأفقدنا أجمل بنت رُزقت بها قريتنا.

كيف تركه الأهالي يخطف هذه البنت الطاهرة وهم مسلوبو الإرادة وتساءلوا بعد ذلك لماذا عاملتهم الشرطة بكل هذا الانحطاط؟

أكد "زعبولا"، أن قسم الشرطة لم يتمكن من تحويلنا جميعًا لمتهمين وخارجين عن القانون، لو لم نترك "أبورواش" يعربد وسطنا بدعوى مقاومة الفقر والجهل ثم يحضر الجميع مأتم زواجه من "جمالات".

قالت أمي: إن "جمالات" أصيبت بالصرع بعد أن منعها "أبورواش" من النزول إلى الشارع والسوق والاختلاط بالناس، وأستأجر لها امرأة عجوزًا لتنظف البيت شراء الخضار، فذبلت وجفت شفتاها اللتان كانتا تخرجان رحيقًا وعسلاً بعد أن امتصه طمع "أبورواش".

قالت "أم عويس"، في اليوم الذي نزلت "جمالات" السوق لتشتري الخضار بنفسها: ضربها وكسر لها ضلعًا وقال إن الرب خلق النساء من ضلع أعوج.. وأنه طلب منه إصلاح هذا الاعوجاج.. كان يشتمها في الصباح والمساء ويلطخ وجهها بنظراته البائسة بعد أن حولته الجمعية إلى شيطان كل همه جمع وسرقة الأموال باسم المحتاجين.

بعد سنين عرفنا أن "جمالات" دخلت المصحة بعد زواج "أبورواش" عليها، لأنها جاهلة لا تناسب نفوذه الذي ازداد وسط الضباط وعلية القوم، قال الناس

الملازمون له وللشيطان الذي استوطن داخله: إنك تحتاج لبنت متعلمة تقدر طموحك.

حين نهره "إبراهيم بليلة" في أيامه الأخيرة حتى لا يتزوج على "جمالات" قال: إن الله لم يحرِّم الزواج وزوجتي تحتقرني، سأتزوج عليها لأكسر عينها وأصلح اعوجاجها.

لم يكن هناك سوى "أمينة" بنت "حمدان" التي تناسبه، وكانت حاصلة على دبلوم وتلبس حجابًا محتشمًا، لكن الجميع يعلم أن أوشة عينيها تدل على فُجرها، وعرفنا بعد ذلك أنها سرقت منه مبلغًا ماليًا كبيرًا وفتحت جمعية أخرى للنساء المسلمات، وأصبحت تنافسه في جمع المال وسرقته.

قال "مينا" إن "أمينة"، التي ضربها يومًا ما بخشبة في رأسها لأنها حاولت هدم منزل "جمالات" للعبادة الذي صنعناه من بقايا أخشاب ورشة والده ملاك، ودافع عنها شيخ الجامع "وفايز" القسيس وجريا وراءنا ليعاقباننا واحتضناها ليزرعا داخل روحها الحب، لم تبكِ يومها وهي المحضونة بقلب القسيس، ونظرت بغلٍ إلينا، وحلفت بأنها يومًا ما ستحرمنا البهجة وتهدم منزل "جمالات".

البر

اختفت الليالي الكبيرة والاحتفالات بالمولد التي كنا نستمد منها الأمل والحب، وهدَّ التعب "أبوعيشة"، المسؤول عن خدمة الضريح، الذي كان يعد الأكل والشرب للمريدين والمحتاجين ، ويذهب في المواسم_بالعشيان واللحوم في الخفاء لبيوت الأهل الذين لم يتمكنوا من شراء اللحوم، كان يعرفهم جميعًا وينتظرونه.

كان "إبراهيم بليلة" والقس "فايز" و"أبوعيشة" يجلسون يتسامرون معًا كل يوم، يتعرفون مع بعضهم على احتياجات البلدة، ويمنعون الحقد والشر من دخول المنازل، كان جهادهم من أجل سمو الحب النابع من الضريح الذي اصطفاهم بخدمته ليحلق بسماء البلدة، كنا نقول لأنفسنا حين نشاهدهم يتسامرون آخر الليل: "إنهم يستحقون خدمته".

أتذكر يوم أن صرخت "نصرة" في السماء ونادت الله في ملكوته ليرحمها من الذل والعجز، فوجئنا بعمي "إبراهيم" و"أبوعيشة" وفايز القس يحيطون بها ويسلمونها مبلغ خمسين جنيهًا كانت تكفي لشراء نصف فدان أرضًا ، وكانت تكفي لإطعامها وابنها العاجز ثلاث سنين متواصلة.

وقالوا بود: إن السماء السبع اهتزت من صراخها وضجت الملائكة وأفزع ذلك رب العالمين بعد أن توسل إليه الشيخ ليرحم عجزها، فأرسل لها هذا المبلغ لتعالج ابنها وتؤمن برحمته.

في هذا اليوم لم يتمكن الشيطان من استكمال مهمته لأن "نصرة" كانت تنوي قتل ابنها التي زهقت من خدمته، لكن الملاك الطيب الملازم لـ"مينا" قد لبى طلبها وأرسل لمخدومة "أبوعيشة" المبلغ ليمنع مصيبة جديدة كانت ستلحق ببلدتنا.

كانت جلسات السمر والذكر كل أسبوعين تكفي لأن تنعم البلدة بحب ظل حتى اليوم ينير حواريها المظلمة ويطعم فقراءها ويهب للمحرومين أنهارًا من الورد والاطمئنان والرضا بأرواحهم.

لم يخدعهم انتشار الشياطين ورجسهم، بعد أن ملأوا بيوت الله بـ"السجاجيد" المزينة بألوان الإيمان الجديد الذي روَّج له الشيوخ، وملأوا بـ"الخيش" بيوت الله أو

أزعجت صرخات أصواتهم، التي ارتفعت بالمآذن والزوايا بكل حارة بالبلدة النائمين ، وحرمت "الشقيانين" من النوم في الفجر.

حين سمع "إبراهيم بليلة"، مؤذن المسجد الوحيد بالزمن القديم، أذان العصر يخرج من عشرات المساجد والزوايا مرة واحدة ليزعج الناس وينفرهم من حب الله، قال: قبل دخول الميكرفونات كان صوتي الجهوري يصل للبلاد الأخرى فيقوموا للصلاة ليتطهروا، هذه المآذن تذكرني بعهد الكفر الذي كانوا يهتمون بتنظيف ملابسهم ويتركون أرواحهم مملوءة قذارة. وقال بأسي: "إن أنكر الأصوات لصوت الحمير".

أما "أبوعيشة"، خادم الضريح، فقال: لماذا يبنون كل هذه الزوايا؟.. إن مآذنهم العالية كأصنام الكفر لا تنفع ولا تضر، كنا بمجالس الذكر نعرف المحتاج ونمد يد العون للجميع، وننشر الحب والإخاء فتختفي المشاكل بين الأهل والجيران دون مآذن مرتفعة أو زوايا، إن مجالس الذكر كانت تفيض على البلدة كل يوم بأنهار من المحبة جعلت هذه البلدة تستمر آلاف السنين رغم انتشار الشياطين دون أن يمسها شر أو تفقد بكارتها.

ومع ذلك ظلت أصوات المآذن تزداد كل يوم وتعلن عن مواقيت الصلاة دون أن يتابع أحد ما يجري في هذه البيوت الكثيرة للرب، لكن "أبورواش" يعرف أسرار هذه البيوت بعد تحوله لإمام مسجد "الزهرانة" يعلّم الناس الإيمان الجديد ، حين كان يسمعه "مينا" يخطب بالناس يقول: إن فمه المملوء بالذباب، لن يخرج منه إلا روائح نتنة، فنحن جميعًا لم ننس حيلته لهدم بيوت الله التي كنا بنيناها بفضلات الأخشاب وتوعده لـ"جمالات" بسرقة أحلامنا، ومع ذلك كانت الناس تأمل فيه الخير، فبعد أن ترك الزراعة وباع أرض أخواته لم يجد عملاً، فتعرف من "أبوعيشة" خادم الضريح على مشاكل الأهل في الحواري وتقرب منهم وكسب ثقتهم وسلم نحو مائتين منهم استمارات مملوءة بأحلامهم ليحققها لهم، قال لهم بعد أن أستولي على الاستمارات والأحلام: " سنؤسس جمعية لمساعدة الفقراء ونشر البر"، وتقاضى من كل واحد فيهم نصف جنيه شهريًا، ورغم ذلك كان يذهب مع "سيد" المخبر لتاجر الأراضي ليأخذ

مرة أخرى الاشتراكات الشهرية للأعضاء الفقراء الذين تجاوز عددهم بعد ذلك خمسمائة مواطن.

حفظ "أبورواش" أسماءهم ووضع طموحاتهم داخل ملفات وأعطى لكل واحد رقمًا وجمع بأسمائهم المنح والعطايا والمساعدات.

حين توسعت جمعية البر الجديدة، اقترح عليه المخبر أن يبني فوق مسجد الزهرانة دورًا كاملاً ليكون مقرًا جديدًا للجمعية لتنهب لعشرات السنين أموال الفقراء، ومع ذلك تزايد الجوعى والعاطلون والأرامل دون أن نفهم أبدًا تلك العلاقة التي تربط بين جمعية "أبورواش" و"سيد" المخبر وازدياد الفقراء والزوايا .

والشيء العجيب أن زوجته الثانية "أمينة" اتخذت من نفس الجامع الذي كان يدير منه الأموال الممنوحة لجمعية البر مقرًا لها، واعتمدت على نفس استمارات الفقراء ونسخت منها ملفات لجمعيتها، وعلمنا بعد ذلك أن أجهزة حكومية تعاونت معها بمساعدة "سيد" المخبر ، وترغب في تصعيدها لحكم البلدة، وأفهمها "سيد" المخبر، وكان ثالثهما الشيطان، أن الدنيا تغيرت وأن للأمن أجهزة سرية أخرى تدير البلد، وأنهم اختاروها لتكون ضمن مبعوثيها الجدد لمنصب كبير سوف يذهل أهل البلدة حين تعتليه، بل إن زوجها "أبورواش" نفسه لن يستطيع أن يرفع صوته عليها حتى لو أجمع الأئمة والشيوخ كل يوم على قوامته عليها، لأن الأمن السري يتحكم في قراراتهم، وطلبوا منه أن يبلغها بترشيحها لهذا المنصب الكبير.

انبهرت المرأة التي لم تكن تحلم في يوم بأكثر من عشيق أفضل من "سيد" يعطيها الأمان والحب، وقالت له في اندهاش: معقول يا سيد؟.. لكن "سيد"، الذي كان يملأ جيبه بحبوب "الفياجرا"، لم يرد عليها وخلع ملابسه وطلب منها أن تصب لهما كأسين من الخمر المعتق الذي أهداه له "عمر" أخو "جمالات" (ضرتها) بعد أن عاد من السفر، فقامت على الفور ولبست قميصها الأحمر الذي يظهر ثدييها كاملين وفتحت "التسجيل" لتغني امرأة ورجل في خلاعة، وتركت المخبر يحتفل بقدرته السرية على معاشرتها عارية، ليرفعها هناك بين الأكابر لتستمتع بكبيرهم وتنعم بالعز الذي طالما حلمت به حين تزوجت "أبورواش" .

وتتحول "أمينة" لامرأة ذات نفوذ عظيم بعد مرافقتها "سيد" المخبر وبفضل جمعية البر.. ولن يتصور أحد من أهالي البلدة كيف لـ"أمينة" الحقودة أن تتحكم بعد ذلك في مصائر الرجال!!

الجنون

في الوقت الذي كانت "أمينة" تستمع بفجر "سيد" المخبر ويلازمهما الشيطان بشقتها الجديدة خارج البلدة، كانت "جمالات" تقف ببلكونة منزل "أبورواش"، تنتظر عودة أخيها "عمر" لينتشلها من براثين الغل، عزم "مينا وسالم وزعبولا" بعد عودة "عمر" من بلاد الخليج بتخليصها من هذا الكافر الذي يدعى زوجها.

حكى"عمر" لأصدقائه كيف كان "أبورواش" يضربها ويعذبها أثناء سفره وأدت معاملته السيئة إلى فقدانها العقل والهوية.. قال: أنتم تعرفون أختي وكيف كانت تعيش كأميرة في بيتنا.. أهانها المجرم وعزمت بعد عودتي للبلدة أن تعود لبيتها، ولم يتردد أصدقاؤه في استرجاع حق أخته الضائع.

لمحتنا "جمالات" تحت سقف البلكونة فغنت بصوتها العذب، أذهلنا هدوء ألحانها وذكرتنا بطفولتنا حينما كانت تحذرنا من الشيطان وتقول: لما يكون حولين البيت كلاب ، لازم نعدي ونجري.. إوعاك يا "مينا" تقع أو تغادر المسافة اللى بين ضلوعي .. خلوني أحيا وأموت من الشوق.

نادى "عمر" عليها لتنزل فأرسلت ابنها الصغير "أيمن" وفتح الباب لخاله واحتضنه وعرفنا أن "أبورواش" ليس بالمنزل، طلعنا سلالم الدور الثالث مسرعين ودخلنا شقتها، ألبسها "عمر" ملابس الخروج بسرعة وعدنا بها لمنزلهم القديم دون أن يرانا أحد.

ابتهجت أمها قائلة: اليوم عاد للجسد الميت روحه، احتضنتها وبكت كثيرًا وتركناهم بالمنزل بعد أن طمأنها "عمر" بأن اللص مدير الجمعية لن يأخذها مرة ثانية، وقال بصوت قوي أدخل في روحنا التحدي: لم يعد له مكانًا في حياتك.

حين جلسنا على مقهى "سيد" بعيدًا عن الناس أخرج "عمر" من جيبه ورقة وقال وهو يبكي: أتريدون أن تعرفوا كيف نزلت من بلاد الخليج التي كنت أكسب فيها الآلاف من الجنيهات، وأشار للورقة التي في يديه، وقال ، خطابها الأخير.. قال "مينا": كنا نرغب أولاً أن نعرف لماذا سافرت، قال "عمر": لا يهم كل ذلك المهم أنا الآن معكم ويمكننا أن نفعل الكثير لإنقاذ بلدتنا من جبروت "أبورواش" و"كليب" و"سيد" المخبر و"أمينة"، يمكننا أن نفعل الكثير. فتح الخطاب وقرأ علينا دون خجل:

يا عمر إنت فينك يا خوي.. الشياطين بتاكل في جسمي.. خليني أموت من الشوق وأنت متغرب هربان.. خايف ترجع تشوف المرار بعد جوازي دون رضاك.. انزل يا خوي، أنا كنت طايرة بالبنفسج، متفتحة لخطيبي أبورواش ساعة عصاري، يومها قال لي يا متنورة بالشوق يا "جمالات".. ضحك علي وأنت مش هنا، وأنا اللي كانت حتة بطاطا وكلمتين في الصفا يفرحونى .. انزل يا خوي.. شبعانة أمك من كلاب السكك.. محرومة أمك من رؤيتي.. انزل يا عمر.

نزلت كلماته علينا والدموع تترقرق في عينه فقلنا : لا تستكمل.

قال: المجرم اتهمها بالجنون وأدخلها مستشفى المجانين لتعدد طوال الليل وهو يعيش في أحضان الفاجرة "أمينة" التي يعلم الجميع أنها عشيقه لـ"سيد" المخبر.. لن أتركه يمر بفعلته.. لن أتركه يمر.

نظر إلينا محزونا كأنه يعاتبنا لترك أخته ببيت المجرم حتى فقدت عقلها وسمحنا للشياطين لترتع في البلدة ولم نقاومهم أو نمنعهم عن ارتكاب الخطايا وسلب قوة وعزيمة الناس.

أعطاني "عمر" خطاب "جمالات" أخته وقال احتفظ به، سوف أدخله السجن وسيكون هذا دليلي.

وحين وصلت للمنزل فتحت الخطاب في لهفة ، كانت تقول في منتصف الصفحة الثانية بعد شخبطة: من غير بيوته ، كنت نفسي أعيش، أنطلق وأشرب معاكم عصير الليمون والمشمش، كان نفسي أشوفك ولو مرة تقف قصاده وتعاتبه على ظلم البريئة، وتأخذ هدومي من الدولاب وتهرب بي ، كان نفسي أغادر جمعيته وأرقام حساباته وأنطلق.. مين يتهزم لك يا خوي عشان تعود.. مين ينتصر لك يا خوي عشان تحس بي.. مين عضني وعاص مداسه في الخراء وشربني منه غيره.. انزل يا خوي وحوش عني.. قادر تخلص على القديم بسهولة وتنسى.. قادر تعض اللي فات منك وتقهره وتعاشر الموت في بلاد الغربة.. قادر لكن يا خوي قوته وظلمه قادرة على طيبتي.. فين يا واد الشوق لأهلك.. يا جاحد.. أمك المحرومة من لمسة أيديك.. محرومة منك يا خوي.. انزل يا عمر.

قادر تعيش في الغربة كم سنة تاني والجنون هياكل دماغي.. كل يوم بشوف وأسمع بلاوي ومش قادرة افتح حشمي اللي اتملي بالخراء.

قادر تقطع شرياني وتفقد اسم البلاد وأصحابك.. قادر تقوم الصبح من غير عينيك.. يا قسوتك.. يا حته من قلبي ضاعت في الظلام.. قادر تغرق كل السفن وتبور كل الأراضي ومش قادر عليه.. بيسفف أختك التراب .. حوش عني يا ابن أبوي وأمي.. فينك يا واد.. وريني وشك أمزعه بإيدي.. فينك يا خوي يا حته من قلبي الحنين.. خايف علي ولا على نفسك.. بتخاف علي وتايه هناك.. مغروسة أختك في الوحل.. عشرين سنة مسافر وغايب ومش سامعه غير حكاوي عنك.. عشرين سنة مرت على محرومة من ريحة القمر وطلعة النيل المورد.. لأجل اللي فاضل من سنين ونسيته ترجع.. ارجع هبوس رجليك واقولك كنت غلطانة، يوم ما خالفت رأيك وقبلت الجبان جوز.. ارجع وميهمكش عقلي اللي ضاع.. لو حسك ، ترجعلي روحه وأشوف الضفيرتين على خدودي من تاني.. متنورين بيك وبالشمس وبالفجر اللي طالع عندك ومحرومة منه هنا.. لو وصلك جوابي يا خوي أعرف أني كتبته في اليوم الأخير في بيت "أبورواش" لأني من بكره هروح السرايا الصفراء ، ارجع وهتلاقيني هناك وهتعرف ازاي ترجع حقي اللي ضاع وتحاكمه.. ارجع مبقاش فاضل إلا الجواب الأخير اللي كتبته بدموعي، حافظ عليه يمكن أموت.

حين أنهيت الخطاب الطويل الذي تجاوز عشرين صفحة، قلت كما قال "عمر": لم يعد للمجرم مكان بيننا.

الغدر

حواديت كثيرة حكاها "كليب" بعد عودته من حربه وجهاده عن بشر يأكلون لحوم بعضهم ويعبدون الأبقار والقطط والكلاب والحيوانات، حواديت كثيرة حكاها عن فشل رحلته وعودته مهزومًا، استطاعوا أن يعمقوا غله وكرهه بعد أن فقد عقله.

قال في الحرب حولوا مياه البحار لبرك من الدم وأهدروا كتاب الله وسنة رسوله في صراعات مستحيلة بين الشيوخ المنقسمين والعدو الكافر.

حين قبضت عليه سلطات الأمن السري وهو عائد من حرب المسلمين حكي "كليب" عن أيامه الأولى بالمدرسة، وكيف كانوا يلقنونه الأكاذيب عن جبروت الله وهول غضبه لارتكابنا المعاصي.. لم يقولوا له أبدًا هؤلاء الشيوخ إن الله غفور رحيم ويحب عباده التائبين.

قال للأجهزة التي حققت معه بعد عودته: أخذني المجاهدون في ليلة مظلمة وبمساعدة "سيد" المخبر لنسافر ونحارب الكفرة، لم أكن أفهم ما يحاربون من أجله ولكنهم قالوا: إن أعداءنا انتهكوا حرمات الله، ورغم أني شاهدت الموت بعيني مرات كثيرة وانفجرت بجواري قنابل أخذت روحي ، وقتلت العشرات من عساكر الكفار إلا أنني في النهاية عرفت أنه لا مكان لي هناك.

دربنا ضباط بشعور صفراء وبشرة حمراء وعيون خضراء وسط الأحراش عن فنون الكر والفر وحمل الأسلحة والقتل دون رحمة، كانوا معلمين مجردين من المشاعر والخوف ويعاملوننا كالآلات، لم يحسوا أبدًا بأحلام أحد منا، ولم يهمهم معرفة أسمائنا أو بلادنا، فعقدت العزم على الهرب، وساعدني بحارٌ هندي في الخروج من المعسكر، ألبسني ملابس امرأة ووضعني على مركب، ودون وداع قال ستقف في بلادكم، حين نزلت بميناء السويس من السفينة قبض على العساكر.

كان النوم قد غادر عينيه طوال شهور التحقيق والحرب، وأخذه الضباط لأماكن سرية يحكي لهم عن ملامح الجنود الاجانب وأسمائهم وطريقة حروبهم. وبعد ستة شهور ذاق فيها العذاب طلب منهم أن يأتوا له بـ"سيد" المخبر وبعد مقابلة طويلة غسل فيها "سيد" المخبر تاريخه القذر ليبدأ عهدًا بديلا للسفالة بتوبته على يد رجال

الأمن الجدد، وأكد "سيد" المخبر أن هؤلاء الرجال كالشياطين لا يظهرون إلا ليلا ويعرفون كل ما يجري في البلدة، ليس هناك أحد يتنفس أو شجرة تنبت إلا وحكايتها مسجلة بملفاتهم، سنعتبرك أحد رجالنا ونطلق سراحك لتعمل معنا كمرشد ، وافق "كليب" واستطاع المخبر بمكره ونفوذه أن يتفق مع الضباط السريين بإطلاق سراحه ودعمه بالأموال ليتاجر في أموال الناس ويتقبلون عودته من السفر منصورًا ويكسب ثقتهم ويحكون له عن خبايا نفوسهم، ليعيد تسجيلها بتقاريره اليومية ويرسلها للجهات الأمنية فيحصل على المزيد من الأموال، واعتبروه منذ ذلك اليوم أهم عملائهم السريين.

الشيء الغريب الذي لم يحاول أحد من البلدة فهمه هو تحول "كليب" لتاجر ملابس كبير وفتحه لعدة محلات بالبلدة وانتشار فروعها الشهيرة بعد مرور السنين بكل مدينة!.

من كثرة إعجاب الناس بالخير الوفير الذي مني به طلبوا منه أن يشاركوه بعد أن قال: إن الربا وفوائد البنوك حرام، كان الناس يقولون اعتبرنا شركاءك يا "كليب" في تلك التجارة، وقيل إنه جمع مائه مليون جنيه قبل أن يهرب بمساعدة "سيد" المخبر وضباط الأمن السريين الذين حصلوا منه على عشرين مليون جنيه ليغلقوا ملف الغدر ويحرقوا ماضيه الملوث، وترك الأهالي مذهولين من حيلته وغدره بهم بعد أن صدقوا أن فوائد البنوك والربا حرام، فاستحقوا باطماعهم أن يتحسروا في ليلة حزينة على أموالهم التي نهبها الشيخ "كليب" وهاجر لخارج البلاد ولم نسمع عنه مرة أخرى.

من بعدها انتشر الغدر بالبلدة واختلفت معايير الأمان، فبعد أن علم "أبورواش" بعلاقة زوجته "أمينة" بـ "سيد المخبر" ولم يعترض ، قال.. المهم من يفوز في النهاية؟!!

بالرغم من انتشار الكذب، إلا أن "نصرة" أم العاجز ظلت مؤمنة بقدرة ولي الله بالضريح على تغيير الأحوال، وشاركتها "جمالات" التي عالجها أخاها بمنزل أمها وآمنت بأن "أبورواش" قد قارب على النهاية.

وفي ظهر اليوم الذي هرب فيه "كليب" بأموال الأهالي مرت سيارة "أمينة" الفاجرة من أمام "فرشة خضار" "أم عويس" دون أن ترمي السلام عليها، قالت "أم عويس" في حسرة: يا صبر أيوب مين يعدل حالك تاني يا بلد.. البت الفاجرة اللي ياما حشت عنها الشر تمر بسيارتها مثل أمنا الغولة لتعمي عيني بعجلات سيارتها المفكوكة دون أن تبتسم في وجهي متناسية فضلي عليها.

تعيش"أم عويس" داخل قلوبنا جميعًا كامرأة جميلة لمنعها الشياطين والجن الأزرق من إيذائنا فحملنا كل الحب لذكرى لامرأة قدمت للجميع المودة ، كانت أمنا جميعًا تعطينا حبات البرتقال وتقول إنها أجمل الفاكهة، وطعمه في نهاية الموسم كالمانجو، كلوا منه قدر ما تستطيعون فسوف يشفيكم من الحقد.

لم ننس أبدًا أنها منعت "أمينة" من حرق منزل "جمالات" للعبادة بعد أن جاءت بشعرها المنكوش وحدها بعد أن عمّ الظلام ورحلنا لمنازلنا لتحرق منزل "جمالات" الذي صنعناه من فضلات الأخشاب وأشعلت النار في الأخشاب، إلا أن النار لحقت بفستانها ولم يطفئها إلا "جردل" مياه "أم عويس" التي ألقته عليها وحضنتها وطردت الخوف من داخلها.

ولم ننس اليوم الذي خطفت فيه الجنية صديقنا "أحمد صبحي" بالساقية وعدنا باكين عاتبين عليها، لأنها لم تتمكن من إنقاذه كعادتها.

كنا نتحدث عن عينيه العسليتين اللتين فقدناهما للأبد، ولكنها حضنتنا وبكت على فراقه وقالت: قبل موته جاءني وقال احتفظي بخصلة شعري يا "أم عويس" وقولي لأصدقائي إنني أحبهم كثيرًا وليس شعري بغالٍ عليهم.. قلت له يا واد يا "أحمد" شعر إيه وهباب إيه يا منيل اللي هتعينوه عندي. لكنه قال: ملكيش دعوة.. وتركني لتغدر به أمنا الغولة عند الساقية.

حين تأتيني ذكراه بعد أن خطفته أمنا الغولة وخبأته بكهفها بساقية عمي "غنيم"، أخرج شعره الأصفر وأحضنه بيدي فأفاجأ به يجلس معي ويحدثني ويطلب مني الفرح ، لأنه استطاع الهروب من كهف أمنا الغولة الموحش لحدائق أطفال الملائكة، ويقول: حافظي على المتبقي مني فهو الأمل الباقي، كنت أفعل بوصيته وأحتضن شعره الذي أخفيه حتى يعود.

"أم عويس" المشغولة بـ"أمينة" التي تزوجت "أبورواش" وكونوا جمعية لنهب الأهالي بادعاء نشر البر قالت: الفاجرة زوجة الكلب بتاع جمعية الفقراء أخذوا صورة بطاقتي عشرين مرة علشان يجيبولي قرض وكل شوية يمضوني على ورق ولم أحصل في النهاية إلا على عفر وتراب تلقيها سيارتهم على فاكهتي. استكملت في حسرة: نسيوا أصلهم وأصبحوا بهوات وأفندية وميعرفوش أم عويس بائعة الفجل والخضار اللي ياما أنقذتهم، آه يا صبر أيوب.. منين أجيبك علشان تشيل عني البلاوي اللي كل يوم بتزيد.. يا صبر أيوب تعالى واتفرج على الغدر المسنود بدين الله والمخبرين.

حين كانت تناجي "أيوب" ليساعدها في تحمل العيشة والغلب قا أحد المارة لها: الحاج أبورواش عايزك يا أم عويس في الجمعية آخر النهار، استغربت وقالت: هتاخذ إيه الماشطة من الوش العكر.

الهروب

تأمل "عمر" السماء وهو يقف بجوار محطة القطار محاولا نسيان ضعفه بترك أخته ليسرق "أبورواش" روحها وهروبه من البلدة بعد تواطأ الأهالي مع "أبورواش"، ليبني مصنعًا ومطحنًا ويفتح المحلات التي تبيع الملابس المستوردة واستولي بتجارته على عقولهم وضميرهم.

ورغم استعادته لأخته وابنها ، إلا أنه كلما نظر لعيونها وعيون أمه، عرف أنهم لم ينسوا رحيله في ليلة حزينة وتركهم لينهش المجرم لحمهم ويتوحش .

ظل واقفًا عند المحطة يتذكر ما حدث ويقول لنفسه: لماذا لم يغفروا لي كما غفرت لهم.. تركوني أرحل حتى فر العمر من يدي، كيف فشلت في جعل السماء تمطر عليهم محبة وتغسل البذاءات التي أتلفت روحهم؟.. كيف فشلت؟ هل أغرتني أنا الآخر شهوة المال والنفوذ فهاجرت من البلدة وأتركهم حيارى في مواجهة جبروت "أبورواش" و"سيد" المخبر؟ لماذا لم يغفروا لي ، لماذا لم يؤمنوا بي ولو مرة واحدة مع أني آمنت بهم جميعًا؟ هل كانوا يحتاجون مني شيئا غير المال؟ لماذا وافقوا على زواج "جمالات" بالمجرم؟ أليس المال والعز؟ ألست الوحيد الذي رفض زواجها؟ ألم يكن يكفي إعلان رفضي؟

حين قارب النهار على الانتهاء نظر للبلدة القريبة من المحطة، وتذكر ليلة المولد وحنية "إبراهيم بليلة" و"فايز" القسيس و"أم عويس".. لكن الذاكرة خانته ولم يعرف باقي الحكاية بعد أن هجر البلدة غاضبًا من أمه التي وافقت على زواج أخته ، يومها قال إنه لا يستحقها، سوف يدوس عليها ليشبع رغباته بجمع المال وذل نفوس الأهل، لكنه في النهاية هرب لبلاد بعيدة ذاق فيها المر وتحمل القسوة والغل من شيوخ محرومين من الإحساس كي لا يعود مهزومًا لبلدته، وحين قرأ خطاب أخته الأخير لم يتحمل فنزل دون أن يعرف ماذا سيفعل.

في الأيام الأخيرة اندهش الناس لتعليق اتباع "أمينة" يافطات كبيرة على كل الجدران تعلن أنها مرشحة لعضوية البرلمان.

تذكر "عمر" حكاية صديقه "سيد صبحي" الذي مات بساقية عمي "غنيم" وترك عينيه العسليتين وشعره الأصفر أمانة عند "أم عويس" قبل غرقه واختفائه،

وسلمتها "أم عويس" لأعز أصدقائه ، نظر لأسطح المنازل من عند محطة القطار، وقال كيف يمكن إعادتها مرة أخرى لسيرتها الأولى؟

رن جرس تليفونه المحمول وأبلغه "مينا" بأنهم ينتظرونه على مقهى "سيد" ليدرسا معًا كيفية مواجهة الشر.

قال "مينا" لـ"عمر": ضروري نتقابل النهارده، فغدًا يوم فاصل في حياة البلدة، لأن المحافظ سيزورها وينوي المجرمون أن يقلعوا أشجار ذقن الجن والشمام التي تحيط بالضريح ليقيموا مركزا للشباب يلعب فيه الأطفال خلف أسواره ويتظللون بحوائط أسمنتية بدلا من ظل الشجر الذي ظل لأكثر من ألف عام يلقي بظلاله وروائحه على كل المريدين والضحايا، ويشفي مرضاهم ويحقق أحلامهم.

شاهد "عمر" "إبراهيم بليلة" و"أبوعيشة" و"فايز" القسيس يهرولون هاربين ناحية المحطة، أوقفهم وسألهم: أين تذهبون؟ لم يعرفوه في البداية ولكنه ذكّرهم بالأيام الأولى والضريح الذي كانوا يلتقون حوله كل ليلة وقهوة "سيد" الذي كانوا يلعبون عليها "الدومينو"، قالوا بصوت جماعي: أنت "عمر" أخو "جمالات" زوجة "أبورواش"، قال نعم وقد عدت لأعيد لها حقها وأحبسه، قالوا له يا بني عد لغربتك واركب القطار وسافر، البلدة تحولت ويملكها الان الأبالسة التي يحيطون بـ"أبورواش" والمخبر، لن يستطيع أحد إعادتها سيخربون البلدة ويحولوها لمدينة الرذائل.

تركوه وساروا باتجاه المحطة، أخرج تليفونه المحمول واتصل بأصدقائه ليلحقوا به من عند المحطة، وقال لهم: الأمر خطير احضروا في الحال.

خلع "فايز" القسيس سرواله الأسود ووضعه على ظهره بينما وضع "إبراهيم بليلة" مداسه تحت إبطيه، لحق بهم "عمر" وقال : انتظروا وسوف نغير الأمور، ابقوا معنا وسوف نطهر البلدة منهم ، لا تتركونا وتهربوا، سخروا منه وقال أحدهم: من الذي هرب يا "عمر" وترك الأهل يغتالهم المخبرون ومدعو الإمامة.. من الذي هرب

وترك أخته والشقيانين للمجرمين ليغلقوا مصانع كانت تنتج الصلب والنحاس والذهب والعمران، وفتحوا مصانع لتعليب وحفظ الطماطم.

تكلم بحرص يا "عمر"، نحن نريد أن نخرج من البلدة سالمين بعد أن تواطأتم جميعكم وسلمتهم للشياطين زمام الأمور.

لحق "مينا وسالم وزعبولا" بـ"عمر" وهو يحاول إقناع الرجال الثلاثة بعدم مغادرة البلدة، وحين التف الشباب حولهم بكي "إبراهيم بليلة" وقال: لن يستطيع أحد منع جرائمهم، الشر استوطن بأرواحهم بعد أطلاق الشياطين والجن الأزرق بمنازل البلدة سحابات الغل.

أيد "فايز" القسيس قوله وقال للشباب: اتركونا نهاجر قبل أن يغتالوا الحب فينا، اتركونا لنحتفظ للأبد بضمائركم نظيفة علكم تعودون يومًا فتجدونها مصونة.

بكى "أبو عيشه" وقال : حافظوا على الضريح وامنعوا قلع شجر ذقن الجن والشمام الذي يحيط بروحه، فالأشرار أحضروا الكراكات وعربات الأمن لينقلوا الضريح ، اتركونا لأننا سنموت إذا شاهدنا رجالنا الأوائل الذين علمونا الحب يقتلعون من جذورهم ويُلقى بهم خارج البلدة، اتركونا حتى لا نموت بحسرتنا على بلدة كانت تعلم الناس الحب وتمكن الأشرار من غزوها ومحو تاريخها، اتركونا لنظل في ذكراكم كحلم باقٍ علّكم تنجحون في يوم ما وتقتفون أثرنا وتذكرون للناس بهجتنا وأعيادنا فيتعلمون من جديد معنى الحياة.

اتركونا.. فلم يبق إلا الرحيل، وساروا ناحية المحطة حاملين الحلم في قلوبهم ليحتفظوا للأبد بذكرى جميلة ، ركبوا القطار ونظروا للبلدة متمنين للجميع السلامة.

العالم الثاني

المقاومة

تجمع الأهالي حول الضريح اعتراضًا على هدمه وحرق أشجاره ، سكنت الدنيا وذهل الضباط من مشهد مقاومة الناس مرور الكراكات على جثث الأشجار ورفضهم اقتلاع الأشجار وهدم الضريح الذي مات صاحبه منذ آلاف السنين ، لم يكن الضباط وحدهم المذهولين، لكن الأجهزة السرية كلها كتبت في تقاريرها أنها لا تستطيع تفسير كيف لبلدة ترتع عشرين عامًا مع المخبرين واللصوص ومدعي الإمامة والفاسدين أن يحيطوا بالضريح والأشجار ويرفضوا مرور الكراكات إلا على جثتهم في تحدٍ وإصرار لم يتوقعه أحد.

لحظات عصيبة مرت، تذكر الناس المجتمعون في وقت واحد، وهم يقفون ووجوههم مشدودة نحو الموت ويتوسطهم الأبطال "مينا" و"عمر" و"زعبولا" و"سالم" في صمت رهيب، حكاية البلدة التي لم يكن بها إلا مسجد واحد يقيم شعائره ويفتحه وينظفه الشيخ محمود عتابي ويؤذن له ويساعده "إبراهيم بليلة".

تذكر الناس وهم مجتمعون قوة الشيخ حين كان يخطب بالناس فيعيدهم لسيرتهم الأولى ويبهجهم بحب الله والبر والتقوى.

كان ينتقد العمدة وشيخ البلدة الذين يعلم أنهم ارتكبوا المعاصي فيجاهر بأسماء ضحاياهم كي يتوقفوا عن ظلم الناس، كان يقول إن العمدة يوم الثلاثاء الماضي ضغط على "ابن زليخة" ليتنازل عن أرضه، وأخذ عقد أرضه بالقوة وهدده بالحبس بالسلاحليك في حضور شيخ البلد، أهذه هي الأمانة التي تحملها يا عمدة بعنقك.. هل من العدل أن تغتصب أراضي الفلاح المسكين؟

يرتعد العمدة وسط الجامع ويظل صامتًا وعند خروجه من الجامع ينادي على "ابن زليخة" ليعيد له أرضه، لم يكن يجرؤ أحد على معارضة الشيخ، كان ينظر

للمصلين وهم يلعبون الدومينو بعد الصلاة وقبل أذان المغرب بحب وعطف ويقول: إن لقلبك عليك حقًا.

تذكر الناس وهم يقفون في صمت أمام الكراكات صندوق البر الذي أشرف عليه الشيخ وأعطى منه لكل مطلقة بالبلدة راتبًا شهريًا يكفيها ويفيض، شاركه "بيشوي" الأب جلساته على المصطبة الكبيرة بالشارع البحري يتدارسون غلق مجاري الشر بالبلدة ومساعدة المحتاجين والأرامل ووقف الأذى، اقتسمو الحب لتزدهر أشجار الشمام وذقن الجن والورود حول بيوت الله التي اعتبروا أنفسهم جنوده المدافعين عن قيم الضمير.

كان يحيط بالشيخ "محمود" والأب "بيشوي" رجالٌ أمثال "أبوعيشة"، و"إبراهيم بليلة"، وعمي "صليب"، والحاج "عبد الحميد" العجلاتي، و"موسى المقري"، والقس "فايز"؛ ليقدموا الخير والبر للأهالي دون تفرقه، استطاعوا أن يجعلوا من البلدة مأوي للحب . لكن أنصار الشيطان تمكنو بعد وفاة الشيخ "محمود" والأب "بيشوي" من الاستيلاء على بيوت الله والغدر بالرجال الطيبين.

الكراكات توقفت بعد أن منعها الناس بأجسادهم وتراجع الضباط والمخبرون المحيطون بهم وقد أفزعهم تحدي هؤلاء البشر المسالمين، رغم أن رصاص بنادقهم أصاب "مينا" و"زعبولا" و"أم عويس" العجوز إلا أن الناس لم تتزحزح من أماكنها كأنهم يبتغون الانتحار.

تذكر الناس في تلك اللحظات الحيلة والمكر اللتين استطاع بهما "أبورواش" أن يخدعهم طوال العشرين عامًا الماضية؛ ليتمكن من السيطرة على إمامة الجامع وصندوق البر، ونشر الملتحين ليزرعوا الفرقة والغل ويهددوا الناس بجهنم التي تنتظرهم بالآخرة.

خطب بالمسجد بعد وفاة الشيخ "عتابي" عدد منهم بدعوى أنهم حصلوا على التعليم بالأزهر الشريف وأعطوا للناس الدروس في المواريث والحدود والحلال والحرام، ونشروا بأدعيتهم الكاذبة الملابس السوداء والأحجبة وزجاجات قذرة لعلاج الأمراض كانوا يصنعونها بحجرة مدفونة خلف الجامع يمتلكها "أبورواش" وقد توسعت تجارته بعد ذلك فبناها مصنعًا للعطور والمفتقة والأعشاب الطبيعية.

تمكن "أبورواش" من تشغيل مجموعة كبيرة من العمال الذين تركوا عملهم بالمصانع الخاسرة وأغلقت أبوابها ، وكوّن منهم مجموعة عملت، كذبًا، تحت إدارته كمصلحين اجتماعيين بين الأهل، فنشروا الفرقة والتجسس على خبايا البيوت.

ظهر هؤلاء المدعون كبديل للرجال الأخيار الذين كانت تمتلئ بهم البلدة والذين كانوا يحيطون بالشيخ "محمود" والأب "بيشوي"، وببراعة الحاوي تمكن من السيطرة على عقول الجميع ، وملأ استمارته بمعلومات قدمها لأجهزة كثيرة ليحصل على التبرعات والأموال، وبعد تسليمه صورة من الاستمارات لـ"سيد" المخبر نال رضا الأجهزة فسمحوا له بتحويل صندوق البر لجمعية أهلية وأعطوه رقمًا في جهازهم الاستخباراتي، وبذلك تحولت الجمعية من صندوق للبر لمكان لنهب العطايا والإتجار بأسرار الفقراء، وأحكم أبورواش قبضته على مقاليد الأمور بالبلدة بدعم المخبر الذي حقد عليه في النهاية بسبب بخله وتوحشه فرافق زوجته الثانية.

تذكر الناس وهم يحيطون بالضريح.. "أمينة" الفاجرة التي تعلم حقيقة زوجها وادعاءاته الكاذبة ، لأنها كانت تشرف في البداية على تشغيل الناس بمصانعه دون التأمين عليهم، كان يقول لها: إن العقود ستزيد الأعباء علينا وعلى العمال، وأن العلاقة الحرة التي بنيناها بيننا تقوم على الثقة والحرية وهما أفضل من القانون. لكن "أمينة" تعلم كل شروره ورشوته للأجهزة والأموال التي استولى عليها بالنهب لذلك لم يخيفها افتضاح سر علاقتها بـ"سيد" لأنها تعلم أن "أبورواش" لا يهمه إلا جمع

الأموال ولو على حساب شرفه وسمعته، فقالت له في فجر حين فاجأها بمعرفة خيانته: وإن كان عجبك.

عاشرت "سيد" المخبر الذي غذى حقدها وأقنعها بضرورة ترشيحها للبرلمان لتصعيدها وسط أعالي القوم حتى تأمن شر "أبورواش" ولتحمي "سيد" من بطش الضباط الجدد الذين لا يفهمون من أمور الأمن السري شيئًا، وأقنع رؤساءه القدامى فرشحوها وعلقت صورها بالميادين لينتخبها الناس لتمثلهم بالمجلس النيابي، وأقنع المحافظ بزيارة البلدة وبناء مكان الضريح القديم مركز شباب كي يبتهج الناس ويصدقوا أن بركات "أمينة" أهم مما يقدمه ولي الله الذي مات منذ مئات السنين، وأن ظل الأسمنت والتكييفات والمراوح بمركز الشباب أفضل من نسمات وعطور أشجار الشيخ التي تفوح من أشجار الشمام وذقن الجن المعمرين خلف الضريح كل صباح بالبلدة.

تذكر الناس كل تلك الحكايات وهم صامتون ينظرون للضباط والكراكات في تحدٍ ولم تخفهم كالعادة بنادقهم ورصاصهم الحي وإصابة "أم عويس وزعبولا ومينا" وهم يدافعون عن الضريح.

وحين أمر الضابط جنودهم وكراكاتهم بالانسحاب من حول الضريح والعودة لقسم الشرطة لم يتحرك الناس من مكانهم وظلوا صامتين ينظرون للجنود والضباط والكراكات ليقهروهم من حول الضريح.

خرج أهالي البلدة من الوحل وانتصبت قامتهم فجأة دون أن يدروا ووقفوا بصلابة ليلقوا مصيرهم وأقدارهم للمجهول دون خوف.. لم تهتز أبدانهم، لم يكن هناك إلا أرواحهم المرفوعة لمواجهة بنادق العساكر أمام الضريح، صرخوا جميعًا وهم صامتون لن تقتلعوا الأشجار والضريح، لن تأخذوا الباقي من ديننا.

وقفت "جمالات" وأمها مزهوتينن، وعيونهما المفتوحتان بالأمل وسط الجمع، لم تكسرهما إهانات "أبورواش" ونسيتا ما حدث وفقدتا ذاكرة الانحطاط والغدر، كان وجه "جمالات" الذى يشع نورًا يذكرنا بـ"جمالات" الشقية التي لم يكن يتصور أحدٌ في هذا اليوم أنها دخلت المصحة لتشفي من غل وحقد "أبورواش" التي لم تفهم سببه حتى اليوم.

حين أصيبت أم عويس بالرصاص الحي في صدرها، انتصبت وهي المصابة والدم ينزف منها ونظرت في تحد لـ"جمالات" الشقية التي كانت تجاورها والتي أنقذتها يوم الرياح العاتية من أمنا الغولة حتى لا تصرخ، فهمت "جمالات" الرسالة ووضعت يديها على الجرح لتوقف نزيف دم أم عويس ومنعت روحها من مغادرة الجسد النحيل.

وقفت "جمالات" محملة بكل أرواح البنات التي فقدتهم البلدة والذين عادوا اليوم ليحيطوا جمع الناس بالحب ويحافظوا على ذكراهم التي كادوا يفقدونها وحلقت فوق "مينا" أرواح "أبوعيشة" والقس "فايز" و"إبراهيم بليلة" حين فتكت رصاصات العساكر أفخاذه وظل واقفًا وممتلئًا بروح أحمد صبحي صديقهم الذي خطفته أمنا الغولة في يوم ما لتخفيه في كهفها البعيد بساقية عمي غنيم.

وقف مزهوًا وفخورًا بأصدقائه الذين يتوسطون جمع الناس، أتعبته أفخاذه المجروحة فجاءت روح "سيد صبحي" بعيونها العسلية وشعرها الأصفر وبراءتها لتوقف الدم النازف من فخذه وتقول: يا "مينا" أنا الآن أعيش مع أطفال الملائكة سعيد بعد أن هربت من كهف أمنا الغولة.. لا تحزن يا صديقي فقد نجوت، ذهل الضباط الذين لم يفهموا أبدًا سر دفاع الأهالي الطيبين وهم يتحدون تحذيراتهم في صمت ولم تتزحزح أقدامهم بالرغم من إصابة بعضهم بالرصاص.

سكنت إحدى الرصاصات كتف "زعبولا" ورمته على الأرض وأغمي عليه للحظات وحين أفاق ونظر في عيون الناس أمسك بحفنة تراب مخلوطة بحنين الشيخ وبقايا ورد أشجار الشمام وذقن الجن ووضعها على الجرح فشفي في الحال، ووقف وسط الجمع في شموخ والضباط والعساكر الذين شاهدوا كل تلك المعجزات وأذهلتهم تعجبوا صامتين من يوم لن ينسى من ذاكرة الأجهزة.

قال "سالم" بصوت عالٍ أبهر المجتمعين: لم يعد لـ"أبورواش" وزوجته الفاجرة مكان بيننا وسوف نعيد القس "فايز" و"إبراهيم بليلة" و"أبوعيشة" ليبهجونا من جديد.

حضرت "نصرة" أم العاجز بعد أن تركت ابنها بالمنزل لتشارك الجمع الدفاع عن الضريح والشيء المذهل أن ابنها الذي تركته بالمنزل كان يتقدم الصفوف ولم يمنعه عجزه من تقدم الصفوف. فتأكدت أن كرمات ولي الله الذي أعطاها خمسين جنيهًا لتؤمن بقدرته على الحب المكتمل فينا، عادت من جديد لأن ابنها صرخ في أمه وكانت تنظر بخوف ناحيته: انظري ناحية الكراكات ليخرج عشقنا للحياة دفعة واحدة ويوقف شرهم.

أذهلها نطق ابنها الأخرس والأعمى فقال لها: لا تندهشي يا "نصرة" فالله الذي حرمني النطق والنظر أعاده اليوم ليعي الأشرار رحمته المنطلقة من بريق عيوننا.

نظرت الأم العجوز ناحية الجنود في تحدٍ لتعيد للبلدة رائحتها الأولى وروعتها بتنفس رائحة أشجار ذقن الجن والشمام كآخر رائحة يجب أن تتنفسها أرواحهم قبل الموت.

اندهش الجميع من قوة "عمر" العائد من بلاد الغربة ليعيد لأخته المظلومة حقها ويعوضها بطش السنين وإهانات "أبورواش"، طارت روحه فوق البلدة بعد عودته من توديع "إبراهيم بليلة" والقس "فايز" و"أبوعيشة" عند محطة القطار وأفزعه ما

ستؤول إليه البلدة فدخل كل البيوت وحكى الحكاية كلها منذ ميلاده وأعلن توبته عن هروبه الذي تسبب في تزايد اللصوص واغتيال "أبورواش" لأخته، وقال للأهالي: في الصباح سيقلعون أشجار الشمام وذقن الجن ويهدمون الضريح ليحرموا روحنا الطيبة الأمل الباقي، صرخ وسطا الناس في البيوت وعلى المصاطب والمقاهي "إنه الأمل الباقي إذا ضاع ضاعت البلدة".

أعلن أن غدًا ستكون النهاية وأن جسده فداء الضريح وأشجاره.. غدًا سيكون اليوم الأخير لبطش أبورواش.. لم يعد لهم مكان بيننا.. فصدقه الناس لأنهم يعلمون أن الضريح هو أخر ما تبقى لهم.

رمت البنات الصغيرات ملابسهن وأحجبتهن السوداء على الأرض، وظهرت شعورهن بألوانهن الزاهية وظهرت صدورهن نافرة بعد أن أحرقن الإسدالات السوداء التي تبيعها محلات "أبورواش" التي ورثها عن "كليب" الذي حارب الوهم في بلاد الروس وعاد كمخبر ليهرب بأموال الناس.

أمسكت البنات العرايا السكاكين في مواجهة الكراكات والجنود المذهولين من بلدة لم يفهموا أبدًا قدرتها على تحدي الموت.

في اليوم التالي انتشرت الحكايات عن صمود الأهالي ونجاحهم في وقف مهزلة خلع الأشجار ونقل الضريح ولم يعد بالبلدة في الأيام التالية سوى تلك الحكايات، لكن الأبطال الأربعة الذين عاشروا الرجال الأوائل والذين أعلنوا الغضب وسط الأهالي لم ينسوا أبدًا المشهد الأخير عند المحطة للرجال العجائز المغادرين بأحلامهم من بلدة تصوروا أنها أبدًا لن تعود من جهلها وتوحشها، وحين تقابل "مينا" وزعبولا و"عمر" وسالم على المقهى في اليوم التالي قالوا : من يعيد القس فايز وإبراهيم بليلة وأبو عيشه ليفرحوا بقدرة أبنائهم على تحدي الموت .

المخاض

في الوقت الذي كانت الكراكات والضباط والجنود يحيطون بالضريح لهدمه كان "أبورواش" والمخبر يجهزان صناديق الانتخابات. لم يفهما تصرف رجال الأمن وعدم سماع نصيحتهم بتأجيل هدم الضريح حتى الانتهاء من الانتخابات، لأن البلدة انشغلت بحماية الضريح وتركتهما يملآن الصناديق بالاستمارات التي تؤكد فوز "أمينة" مرشحة الشعب.

استدعى "أبورواش" والمخبر اللصوص والبلطجية وبعض أتباع "كليب" ليحملوا صناديق الانتخاب التي ملآها باستمارات "أمينة" واستبدلوها بالصناديق الفارغة التي أشرف عليها الموظفون طوال النهار.

جاءت الأوامر ليعلن القاضي مبتهجًا فوز "أمينة" بأصوات أهالي البلدة مجتمعة بعد أن فرز الأصوات بحياد وموضوعية.

نسي الأهالي في هذا اليوم الانتخابات واجتمعوا حول الضريح ليحموا جدرانه المهدمة ويقاوموا البوليس والكراكات في معركة، لم يفهموا أبدًا من افتعلها، وتركوا بإرادتهم لـ"أبورواش" والمخبر وعشيقته يرتبون فوز امنية بنت الدائرة.

لم يتفاجأ الاهالي حين علموا بفوز "أمينة" ، لكنهم فوجئوا بأحوال "أبوسعدة" الذي خرج من السجن وأصبح إمامًا للمسجد بفضل وضمان المخبر، في هذا اليوم ركب سيارة نصف نقل ووضع عليها "يفطًا" وأوراقًا كثيرة رسمت عليها صورة "أمينة" ونادي بميكروفون ليحفز الجمع المحتشد خلف الضريح ليذهبوا لأماكن الاقتراع بالمدرسة الابتدائية ويدلوا بأصواتهم قبل نهاية اليوم الانتخابي، وقال لرئيس المباحث: صرخت فيهم أكثر من مرة، لكنهم نظروا للميكروفون في سخرية ولم يسمعوني، وشاهدت صلابتهم وتحديهم الذي كنت أوقن أننا فقدناه للابد.

أثنى الضابط عليه ووعده بأن يأخذ ابنته وزوجته لمستشفى الأمراض العقلية لدوره الكبير في تنفيذ أوامر الأمن والنظام، لكن "أبوسعدة" اندهش من جمع الناس

الصامد، فتذكر دون أن يدري مشهد خروجه لقتال عائلة "الزهرانة" عاريًا ، ولولا لحقه "إبراهيم بليلة" لكان الآن جثة عفنة بترب النصارى بجوار محطة القطار.

حين نودي على الصلاة في هذا اليوم، لم يدخل الجامع إلا بعض العساكر و المخبر و"أبورواش" وابنه "أيمن" الذي أصبح يلازم أباه كالظل، ليتعلم منه والحيلة بعد تشاجره مع امه وخاله وترك لهم البيت ليعيش مع والده ليتعم ويدير مصانعه وجمعيته.

ورغم أن "أبورواش" وابنه أسرعا بعد صلاة العشاء لمقر الجمعية بعد أن سلما صناديق الانتخابات للقاضي ليعلن النتيجة واختفوا لمدة ساعتين بعد أن أغلقوا على أنفسهم المقر بالمفاتيح ليحرقوا بقايا الاستمارات وكشوفات الناخبين والمرتشين.

في هذا اليوم سلم "أبورواش" ابنه مفتاح حجرته السرية التي كان يمتلئ دولابها بعقود لمنح أجنبية وهبات وعطايا، لأنه خاف من افتضاح أمره أو وشاية المخبر به بعد نجاح "أمينة" في الانتخابات.

قال لأيمن.. أنت بديل عني لتقود البلدة إذا حدثت مفاجآت وأطاحوا بي ، الأمن لا أمان لهم فرغم أننا نعتبر رجالهم لكن الغدر في دمائهم وإلا ما تمكنوا من حكم البلدة.

استئمنه علي المستندات التي تؤكد علاقاته بمنظمات دولية وسياسية ودينية وإتجاره في تأشيرات الحج التي تعطيها له الأجهزة مجانية فيبيعها ويحصل منهم على المال مقابل حصولهم على بركة زيارة قبر الرسول.

كان المستند الذي مكن "أيمن" من أبيه واستخدمه بعد ذلك ليقعده بالمنزل هو العقد المحرر بين "أبورواش" وإحدى الجهات الأجنبية ودوره في جمع المعلومات عن أحلام وطموحات الناس.

أكدت الخطابات الكثيرة للجمعية أنه كان يرسل تلك المعلومات وأسرار الناس لجهات استخبارية كثيرة دولية ومحلية، لكن المعلومات التي أذهلت "أيمن" تلك المكتوبة بخط يديه، وتحكي أسرار زوجته "جمالات"، والتي تؤكد قيامه بغلق قناة الخير داخلها بعد تدريبه الأخير ، ونجاحه في استخدام البشر كفئران تجارب ليفقدها الذاكرة ويجعلها تصدق أكاذيبه وافتراءاته وتصدق خيانة أخيها "عمر" وأصدقائه.

كتب بتقريره "أنها كانت تحاكي زوجته الثانية "أمينة" وحاولت أن تتزين مثلها وتلبس أحجبة وإسدالات ، وصدقت كذبه البارع بضرورة قيامها هي الأخرى بفتح جمعية أهلية ولما آمنت بما يقوله صدمها برفضه لجهلها وتلقائيتها، ووضع خطًا أحمر تحت تلك الجملة وكتب فوقها: أنت لا تنفعين إلا بجمعية لتربية الطيور فوق سطح المنزل، ففقدت عقلها لبراعته في تصديقها ببراءة كذبه.

نسي "أبورواش"، في غمرة أحداث ليلة الانتخابات وهدم الضريح وهو يسلم ابنه مفتاح حجرة المستندات، أن يخفي هذا المستند الذي استخدمه "أيمن" ضده وحوّل أباه لشيخ مشلول قعيد يتسول الكلمة الطيبة من الناس.

مساء اليوم الذي هربت فيه الكراكات وانسحب ضباط البوليس للقسم وتركوا الضريح وأشجاره أمام صمود الناس، عادت البلدة التي غامرت بمصيرها للمجهول .

بمجرد أعلان القاضي فوز "أمينة"، وقالت للاهالي : إن الضريح وأشجاره ستظل مصانة طالما بقيت وسط أعالي القوم أمثل أحلامكم، لكن المخبرين والمراقبين لم يفهموا تصريحاتها إلا حينما ذبحت ثلاثة عجول في اليوم التالي أمام جمعيتها التي استقلت بها عن "أبورواش"، وبنتها خمسة أدوار، وأقامت سرادقًا كبيرًا ضم المخبرين وممثلي الجمعيات في البلدان الأخرى ومراقبي لجنة الانتخابات التي تشرف عليها منظمات حقوقية وقضاة، وملأوا بطونهم عن آخرها من طعامها الفاخر، وسلمتهم أظرفًا احتوت على بدلات للبهدلة والوشاية والمراقبة.. فصدقوا وقتها بأنها

الأمينة على رزق أولادهم ودخولهم وفهموا حكمتها بضرورة الحفاظ على الضريح وأشجاره كذكرى .

مع انتهاء اليوم واستلام "أيمن" مفاتيح الجمعية، أعلن المخبرون قيام صراع خفي بين "أمينة" زوجة "أبورواش" بكل جبروتها ونفوذها الجديد، وبين "أيمن" وريث المكر والغل وابن "جمالات" الذي يدير الان ثروة أبيه.

العالم الثالث

الظلام

لم يكن يتصور أحدٌ أن يقتلوا "مينا" الذي قدم كل الخير على مر السنين، وأعطى دون أن يسأل أبدًا عن المقابل.. لم يكن يتصور أحدٌ أن يقتلوا "مينا" ذلك البطل الذي حارب مع أهالي البلدة دفاعًا عن الضريح حتى لا تفقد البلدة رائحة أشجار الشمام وذقن الجن.. قتلوا "مينا" وفقدنا ذكرى حكايته عن الملاك الطيب بين السماء والأرض، قتلوه بدافع الغل والكره ليدفنوا الذكريات الطيبة والحب بأعماق مجاري الشر داخلهم.

من كان يتصور أن يحيط الشباب الملتحين بدعم من المخبر الجديد "صبحي المنصوري" بالكنيسة بعد أن ادعى كذبًا بأن "مينا" هو القاتل وشاهده يدخل الكنيسة مختبئًا بعد ارتكاب جريمته.

الآلاف من الشباب والبشر أمسكوا السكاكين والسنج وملأ وجوههم الغل وحاصروا الكنيسة في غيبة الأمن يطالبون بخروج "مينا" وإلا أحرقوها بالمشاعل المملوءة بالبنزين والجاز.

لم يسأل أحد الشيوخ أو الشباب الذين جمعهم "صبحي المنصوري"، رمز الأمن الجديد، كيف قتل "مينا" "سيد" المخبر؟

هل يمكن أن يقتل "مينا" أحدًا؟ تساءلت "أم عويس" العجوز وهي تشاهد الغل يحيط بالكنيسة محاولةً منع إشعال الفتنة، رغم المرض الذي فتك بكليتيها وكبدها صرخت في الجمع الذي ملأ الحقد قلوبهم: هل يمكن أن يقتل "مينا"؟ أين عقولكم؟ هل يمكن أن يمسك "مينا" بندقية ويصوبها بإتقان في قلب "سيد" المخبر الأسود؟ "مينا" الذي قدّم الخير لكل الأهالي على مر السنين، كيف تصورتم أن يقتل أحدًا؟! إذا كنتم ترغبون في معرفة القاتل، اسألوا "صبحي المنصوري" ، اسألوا "أمينة" الفاجرة

اللعوب التي أصبحت تحكمكم، اسألوا المجرم الجديد "أيمن" الذي يحكم عليكم جميعًا بالنوم كالفئران في جحوركم، كيف تصورتم أن يقتل "مينا"؟

المئات تصرخ حول سور الكنيسة ممسكة بأسلحتها البيضاء والمشاعل: اخرج يا "مينا".. اخرج يا ابن امصراني.. يا قاتل المسلمين.. اخرج وإلا حرقنا ماخوركم يا كفرة يا أبناء الصليب.

شوهدت "نصرة" أم الأعمى والأخرس بعكازها تقترب من باب الكنيسة وتحاول منع جمع الشباب الملتحي من اقتحام البوابة، وقالت في تحدٍ: لن تقتلوا مينا.. اندهش الجمع، فكيف لامرأة أعجزها المرض وأكل السرطان ثديها وأردافها أن تظهر وسط الجمع وتمنع اقتحام الكنيسة بجسدها؟! واقتربت "أم السعد" منها وأصبحتا كالفولاذ على بوابة الكنيسة.

صرخت "نصرة" أم العاجز بقوة أسكتت آلاف الصرخات التي أطلقها وأشعلها "صبحي المنصوري" ، وهرب لمقر قسم الشرطة ينتظر نتيجة أفعاله الشيطانية وقالت: أمانة عليكم عودوا لمنازلكم.. لم يقتل "مينا" أحدًا.. "مينا" حفيد القس "فايز" والأب "بيشوي" الذي زرع الورد مع الشيخ "محمود عتابي" وفتح قنوات الحب لتجري وسط حوارينا فتظلل علينا روائحه الطيبة.. "مينا" أبدًا لن يقتل أحدًا.. أنتم تعرفون من القاتل، ابحثوا عنه عند "أيمن أبورواش" و"صبحي المنصوري" والفاجرة وشيخ الجامع النصاب "أبو سعدة" الذي جعلتوه إمامًا عليكم .

وصرخت: كيف تتركون أبناء الشر يرتعون بالبلدة وتأتون لبيت الله تبحثون عن الملاك الطيب "مينا" لتقتلوه؟!.. إن قتلتم "مينا" ضاع الخير والأمان ببلدتنا، عودوا لعقولكم أمانة عليكم.. "مينا" أمانة ببلدتنا تركه الشيوخ الأوائل ليخيف الجن والعفاريت.. "مينا" رفيق الملاك الطيب لم يقتل أحدًا.. فلا تقتلوه.

فوجئ الجمع بـ"أبورواش" المشلول يمشي وسط الجمع على كرسيه المتحرك وهو العاجز عن النطق يشير لهم بالرفض، وكأنه يقول: اقتلوني قبل أن تقتلوا "مينا"، اقترب "أبورواش" وسط ذهول الناس من باب الكنيسة ووقف ليمنع الغل من الانتشار ولاصق "أم عويس" و"نصرة" على باب الكنيسة ليمنع الملتحين من اقتحام الكنيسة وحرقها ، أمسك عصاته وأشار للسماء وهو يستهزئ بالجمع كأنه يقول: استحق "سيد" المخبر القتل، لكن "مينا" الطيب أبدًا لم يقتله، يعلم "أبورواش" من القاتل لكن عجز لسانه ويديه منعه من النطق بالحقيقة.

فرد "أبورواش" فرخ أبيض كبير مكتوب عليه "مينا الطاهر البريء لم يقتل المجرم"، عرف الناس أن "مازن" ابن "سماح" هو الذي كتبها وأعطاها لجده ليفخر وسط الجمع بإعلانه براءة "مينا".

شاهد الناس "زعبولا" البطل وهو يحاول تفريق الجمع وهو ممسك "سنجة" كبيرة، فجرح كثيرًا من الملتحين حتى وصل لباب الكنيسة والدماء تسيل من ملابسه وصرخ: لن تمروا للكنيسة إلا على جثتي.

أمسكت ""نصرة" و"أم عويس" المريضة و"أبورواش" العاجز في تلابيب ملابسه محاولين القيام بعمل سدًّ يمنع المئات من البشر الملتحين المغيبين من ارتكاب جريمتهم بانتهاك حرمات بيت الله.

ارتفعت الصرخات والهتافات من الجموع المحتشدة: اخرج يا "مينا" يا ابن النجس.. اخرج يا كافر.

كان الأب "وليم" يحتضن "مينا" بالداخل ويمنعه من تسليم نفسه للملتحين، ويذكره بحكمة الأب "بيشوي" بأنه لا يجب أن نلقي بأنفسنا للتهلكة، و"مينا" يتوسل الأب أن يتركه ليسلم نفسه ليحمي الكنيسة والأطفال الصغار من الموت ويعلن براءته، قال للأب متوسلا: اتركني لأبحث معهم عن القاتل.

كتب "صبحي المنصوري" في تقريره إنه تلقى إخبارية بالقسم صباح اليوم في العاشرة من مجهول تفيد بوجود جثة "سيد" المخبر بمقلب القمامة أول البلدة غارقًا في دمائه، وأدلى المجهول بصفات القاتل الهارب والتي تؤكد بأنه "مينا" ملاك، خاصة أن فرقة البوليس التي ذهبت لمعاينة الإخبارية والتابعة للمخبر وجدت قطعة من قميص "مينا" يمسك بها المخبر المقتول.

لكن أحدًا من البلدة لا يعلم كيف جمع "صبحي المنصوري" هؤلاء الملتحين والعمال من مصانع "أيمن أبورواش"؛ ليلاحقوا "مينا" بمبنى الكنيسة وهو يعلم البنات الحب، حاول "مينا" أن يخرج ليعلن براءته لأنه لم يغادر الكنيسة منذ الساعة التاسعة والمخبر قتل في العاشرة.. لكن القساوسة أغلقوا باب الحجرة عليه ومنعوه من الخروج بأوامر الأب "وليم".

فاض الكيل بجمع الملتحين فأشعلوا المشاعل؛ لأن ظلام الليل قد حل وعزلت البلدة بعد قطع الكهرباء والتليفونات والمياه، فتحولت الحواري لمأوى للبوم والغربان التي تستعد لاقتحام كنيسة الرب بمن فيها للأخذ بالثأر من قاتل المخبر المسلم عشيق "أمينة" وسبب كل البلاوي التي منيت بها البلدة!

انتشر الشر وحلّق عاليًا فوق الجموع فداست أقدام الملتحين جثث "أبورواش" و"رحمة" و"أم عويس" وفتكت سيوفهم قلب "زعبولا" الذي ظل رافعًا "سنجته" وأصاب عشرات الملتحين في وجوههم، لكنهم طعنوه مئات الطعنات حتى ارتمى أرضًا وهو يدافع عن"مينا" صديق .

تذكر "زعبولا"، وهم يفجرون قلبه بسيوفهم، العيون العسلية والشعر الأصفر لصديق عمرهم "سيد صبحي" الذي تركهم قبل أن غرقه بساقية عمي "غنيم" أمانة

عند "أم عويس" لتعطيهم لـ"مينا" ليحافظ عليهم ليذكرهم دائمًا باالأخوة التي ظلت تحميهم طوال العمر.

ظل "زعبولا" المقتول يتذكر ويتسأل وهو مذهول من بلدة فقدت ذاكرتها ومشت نحو أقدارها للخراب وغاصت أقدام شبابها الملتحين بوجوههم الكئيبة في وحل الغل : كيف وصلت بلدة الأمان والحب الي هذا الحال؟

الضحايا

في تقرير "صبحي المنصوري" لأجهزة الأمن السرية كتب: أحرق الملتحون الكنيسة، لم يتبق فيها شيء، جمع العساكر وموظفو الإسعاف أشلاء الجثث الثلاثين الذين استشهدوا بمعركة الكنيسة.

وتساءل الأهالي: لماذا لم تحم الآلهة الكنيسة رغم أنها حمت الضريح وأشجاره في الزمن الفائت؟!

مات الأب وليم الذي استلم الكنيسة من الأب "بيشوي" والذي كان كاللبن الحليب، لم يحزن أو يغضب من أحد أبدًا ، يحتضن أبناء الأمهات الأرامل ويعطيهم دون تفرقة مبلغًا شهريًا يكفي لإعالتهم، علّمت الكنيسة في زمنه أبناء المسلمين والمسيحيين الموسيقى والمسرح والعلوم ، لكن كل ذلك لم يغفر له وهو يحاول منع الملتحين اقتحام الكنيسة فخرج لهم قائلا: إذا كان "مينا" أخطأ فدعوني أحقق في الأمر ونأخذ جميعًا حقنا منه. لكن ابن الشيطان فاجأه بضربة السيف ففلقت رأسه نصفين، الشيء الذي أفزع الملتحين أنه وضع نصفي رأسه المشقوقة ليعود للحياة مرة أخرى ونادى فيهم: عودوا لضمائركم.. لا تفعلوا الفاحشة.. لا تقتلوا الأبرياء.. عودوا لضمائركم، لم يقتل "مينا" أحدًا، وأطلق صرخاته الأخيرة: يا رب أين أنت.. يا رب أين أنت؟

داست أقدام الملتحين رأسه المشقوقة دون رحمة. كانت بقايا صور الرب وأمه التي داستها أقدام المقتحمين تملأ بقايا الكنيسة التي كانت حتى الأمس منبرًا للحب، قال أحد الجنود الذين جمعو أشلاء الكنيسة المحطمة: صورة الأم "مريم" جميلة.. فلطمه الضابط الذي كان بخلفه على خده وقال: اجمع بقايا الحريق وأنت صامت حتى لا أحبسك أو أحرقك معهم يابن الجزمة.

حاول سالم، صديق "مينا"، الوصول لباب الكنيسة يوم الكارثة، لكن ابنه الذي كان قد كبر منعه وقال : ما لنا احنا ومال الكفرة دول ومينا ده مش نصراني وابن

صليب.. هتروح إزاي تدافع عنه. وحذره من الخروج لأن "أيمن" الذي يعمل بمصنعه سوف يطرده لأنه أعطى للعمال إجازة بعد خبر مقتل المخبر وقال لهم: انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا، ومينا النصراني قتل "سيد" المخبر المسلم، يجب أن نكون في صف أخونا المسلم، وأيد كلامه الشيخ "سعدة" فترك العمال ليحاصروا الكنيسة مع الملتحين ضد أبناء الصليب الذين تزايدوا في الفترة الأخيرة وكبرت شوكتهم وباتوا يقتلون المسلمين دون خوف، ونسوا الجبناء أن المسلمين أسيادهم ، ويجب أن يدفعوا لهم الجزية لينعموا بالحماية.

حاول "سالم" أن يفهم ابنه أن "مينا" لا يمكنه أن يقتل أحدًا فهو صديقه، لكن الابن صرخ في وجهه وقال: مش ناقص علينا غير الدفاع عن الكفرة !

ومع ذلك حاول "سالم" الخروج إلا أن زوجته أمسكت بجلبابه وقالت : ماذا سينفع ذهابك؟! لن يوقف القدر، أرجوك يا سالم، افهم مصلحتنا فين يا خوي ودافع عنها، أيمن وصبحي المنصوري وزوجة "أبورواش" والشيوخ الملتحين يملكون الان البلدة ونحن طلعنا نزلنا خدامين عندهم، فلا تجني علينا البلاء ليتركونا في حالنا.

بكت ابنته مؤكدة كلام أمها وقالت: لا تخرج يا أبتاه.. لا تخرج، المقدر مقدر، سيؤدي خروجك للمزيد من الخراب.. اتركنا يا أبي نعيش سالمين.

فقد "سالم" كل عزيمته بعد اغلاق مصنع النسيج الذي كان يعمل به عشرون ألفًا ، وظل قعيد البيت ولم يرحمه من الموت متحسرًا إلا الذهاب للجامع كل يوم والجلوس فيه طوال النهار لبعد صلاة العشاء، محاولًا نسيان أحداث بلدة أعطاها كل شيء وحرمته في أيامه الأخيرة طعم الأمان.

وقف بشباك منزله خلف القضبان الحديدية المطل على الشارع، ناظرًا ناحية الكنيسة، محاولا استيفاء الأخبار من الجيران والمارة، أملًا أن يعود الملتحون لديارهم تاركين "مينا" سالمًا.

اندهش "عمر" عند عودته في اليوم التالي من سفره عندما سمع أحداث حرق الكنيسة واستشهاد "مينا" ولم يصدق ما حدث وتساءل: كيف هان على أهالي البلدة اغتيال براءتهم؟ لكنه قال.. مقدر ومكتوب.

كان "عمر" قد تحالف مع ابن أخته "أيمن" بعد استيلاءه على ثروة أبيه وعمل معه كمستشار ينصحه لتكبر ثروته ويدير أعماله في تجارة الأراضي الفضاء وتخسير مصانع الحكومة وشرائها ثم بيعها للتجار بأضعاف أضعاف ما دفعه.

فقد "عمر" الأمل في إصلاح "أيمن" فأشرف على مصانع التعليب الجديدة التي ورثها "أيمن" عن والده محاولا إضاعة المتبقي من العمر وسط زخم المصنع والإنتاج.

في الشهور التي سبقت حرق الكنيسة تغير "عمر" بعد أن أصبح مديرًا وشريكًا لأكبر تاجر وصاحب مصانع بالناحية، وتحسنت علاقته بأيمن بعد إصابة "أبورواش" بالشلل وظل قعيد كرسيه المتحرك متوسلا الكلمة الطيبة من الجميع، لكن "عمر" الجديد ما عاد يتذكر الأجداد الأوائل، ونسي أنه كان السبب في وقف هدم الضريح وقلع أشجار ذقن الجن والشمام يومًا ما، نسي مقابلته التي لا تنسى مع "فايز" القسيس و"إبراهيم بليلة" و"أبوعيشة" ووعده لهم بالحفاظ على ما تبقى منهم لينعم الأهل بالأمان، لكن البعض أكد أن "عمر" لو كان موجودًا في هذا الوقت لما قتل "مينا" أو حرقت الكنيسة.

كان "أيمن" قد طلب من خاله قبل اليوم المشؤوم بأسبوع، السفر ليتوسط في شراء صفقة حديد تركي سوف يكسب منها "أيمن" مائه مليون جنيه؛ لأنهم يشترون الحديد من الأسواق التركية بألف جنيه ويبيعونها للتجار بخمسة آلاف جنيه، وقال لـ"عمر" : سوف نكسب مائه مليون جنيه دون أن ندفع مليمًا واحدًا وهذا المبلغ مقابل تعبك ووقوفك بجواري بعد مرض والدي، ابنِ فيللا كبيرة لابنك "علي" وافتح له مصنعًا صغيرًا، هذه صفقتك وأنت حر التصرف في ربحها. ورغم أن "عمر" لم يكن يهتم كثيرًا بحجم الأموال التي يكسبها لكنه سافر ولم يعد حسب تذكرة العودة من تركيا إلا بعد خمسة أيام من حرق الكنيسة ومقتل "مينا".

ورغم ذلك لم تنسَ نساء البلدة الصراخ والعويل التي أطلقته زوجة "مينا" وهي تحمل ابنها ملاك على كتفها، وتقول لكل من تقابله: ألم تشاهدو زوجي ؟.. كان يجلس مع الملاك الطيب في الليلة الفائتة ببلكونة شقتنا الصغيرة يخططون لبناء كنيسة جديدة لتعليم الناس الحب.. ألم تشاهدوا مينا؟.. كانت تشير لابنها "ملاك" الذي تحمله على كتفها وتقول عندما يكبر ابنه سأقول له: شرب دم أبيك حقد بلد عاش طول عمره يعشق أهلها ويعطيهم دون مقابل.. روت دماء أبيك مجاري الشر لأهالي بلد أدخل السرور على قلوبهم جميعًا.. وصرخت : ماذا أقول لملاك ابنه حين يكبر؟

تهدئته النساء التي تلتف حولها وتقول : يا أختي معلش عوضك على الله.. أمرك لله يا أم ملاك.. ربنا مش هينساكي يا أختي.

وحين قابلت "عمر" قالت : يرضي ربنا يا حاج "عمر" أن تترك صديق عمرك تغتاله يد المجرم ابن أختك ومخبره صبحي المنصوري، هدئها "عمر" الذي أصبح حاجًا مهابًا بعد زيارته بيت الله الحرام عدة مرات وهي تسبه مندهشاً من اتهامها لابن أخته ، فقالت وهو يدافع عن ايمن : يا ناقص.. يا واطي أعمتك الفلوس والغل من "أبورواش" فنسيت أصحابك وأهلك ووافقت على سفرك خارج البلاد لحرق صديقك..

لتقول لنفسك لم أكن هنا وقت الجريمة.. ها أنت عدت وعلمت ماذا ستفعل ، أنسيت إهانة أختك وفقدها لعقلها.. اليوم يغتالون صديقك ويفقدوني العقل يا "عمر يا أخو الجريحة ".

أعتقد "مينا" الذي اغتاله هروبك الدائم أنه يستطيع إرجاعك وإصلاحك.. كان يعتقد أن قنوات الخير التي ردمت داخلك سوف يحفرها من جديد حين يذكرك بعيون "سيد" صبحي الذي مات بـ"ساقية غنيم".

اندهش الناس من "أم ملاك" التي كانت تحفظ ماضي البلدة الذي فجر قلوب الناس في الماضي وتساءلوا: من لقنها كل هذه الحكايات؟.. أمقتل زوجها أم حياته!

الفاحشة

الوحيدة التي تعاطفت ودافعت عن "مينا" ضمن أعوان "أيمن" كانت "سماح"، البنت القوية التي كانت تدير أملاك وجمعية "أمينة"، وكانت ذراعها اليمنى في كل شيء، أحضرتها "أمينة" من مصنع للأعشاب يملكه "أيمن" لكسرها بعد أن شاهدت فيها براءة وقوة ورائحة البلدة القديمة، وأقنعتها بالعمل بمكتبها وأعطتها فرصًا كبيرة لتعلم الكومبيوتر واللغات، وتجاوزت "سماح" تصورات "أمينة" عن إمكانياتها واستطاعت أن تفهم كل الخيوط التي تربط علاقات وثروة "أمينة"، وخلال شهور كانت تدير تلك الامبراطورية التي صنعتها "أمينة" على جثة "أبورواش" المشلول.

تعرف "سماح" تطورات علاقة "أمينة" بـ"سيد" المخبر وكيف أنه بعد مرض "أبورواش" وتسلم "أيمن" مفاتيح الجمعية وإدارة التركة، فقد "سيد" المخبر ثقة "أيمن" وتأثيره عليه بعد بروز نجم "صبحي المنصوري" كرجل الأمن السري الجديد، وتفحمت علاقة "أمينة" بالمخبر التي لحق بشعره الشيب ورفضها محاولات "صبحي المنصوري" التقرب منها.

أبلغت "أمينة" "أيمن" بتلميحات المنصوري الذي استدعاه وطلب منه قطع علاقته نهائيًا بـ"أمينة" لأنها في النهاية زوجة أبيه وتعلم الكثير من الأسرار بالإضافة إلى أن تجربتها السابقة التي خاضتها بالانتخابات وطدت علاقتها بالكبار من ذوي النفوذ، رغب "أيمن" في اتقاء شرها لذلك حين طلبت منه "سماح" مديرة أعمال "أمينة" بأن يمنع تحرشات "صبحي المنصوري" المخبر لم يتأخر.

أغلق "أيمن" سماعة التليفون وهو يقول لـ"سماح" الموضوع خلص مش هتسمعوا صوته ولا تشوفوا وشه تاني.. وعندما قالت "سماح" متشكرين يا "أيمن" بيه، تذكر روح أمه المريضة التي عادت مرة أخرى تحدث نفسها كلما شاهدته وهي تقول له اللي خلف ما ماتش.

لكن "أمينة" الفاجرة تعلم الكثير عن العلاقات النسائية لأيمن ومع ذلك كانت ترغب في معاشرته وتنتظر الفرصة، ففي مساء اليوم الذي اتفق معها على تقاسم التركة التي ورثاها سويًا عن "أبورواش" رفضت عرضه بترك المصانع والأراضي الفضاء له مقابل الفيلا والجمعية وعشرة ملايين بالبنك سيضعها بحسابها بدعوى أن الوقت تغير وهي لن تستطيع العمل وسط أبناء الشر الجدد الذين تكاثروا بكل الجهات والأجهزة والشوارع، وافقت على شرط أن يروي ظمأها بعد تفحم علاقاتها بـ"سيد" المخبر.

كانت تعلم أنه مثل أبيه يضحي بكل شيء مقابل المال، وكانت ليلة من أجمل الليالي التي استمر "أيمن" يعاشرها حتى طلوع النهار وخلقت مجاري جديدة للشر لعلاقة تستمد أساسها من جبروت وظلم "سيد" المخبر وشر "كليب" وطمع أبيه ليرث "أيمن" كل هذه التركة وحده ويفجر أنوثة زوجة أبيه في ليلة لن تمحى من ذاكرتها أبدًا.

يزورها "أيمن" كلما هاتفته وبعد أن يدخل شقتها الواسعة تختال شبه عارية بشعرها الملون بعد أن تكون قد طردت الشغالين وتلبس قميصها المزخرش المفتوح ليظهر نصف صدرها ونصف أردافها عاريين، وتضع لبانة كبيرة وسط فمها وتنتظر له فتلهبه ويتفتق ذهن "أيمن" وقضيبه محاولا فهم طبيعة وحب هذه المرأة للحب بشكل فاق قدرته على عشقه للمال!!.

"سماح" الوحيدة التي كانت تعرف سر زيارات "أيمن" المتكررة لمنزل "أمينة" لكنها أبدًا لم تتحدث مع أحد فيها، تهتم فقط بعملها وتتقنه وتدير الجمعية ومواعيد "أمينة" وسفرياتها دون أن تخطئ ولو مرة واحدة لأنها تعلم أن "أمينة" ترغب في هزيمة قوتها الموروثة من رحيق أشجار الضريح فأصرت "سماح" بتحد على المقاومة رغم أموالها وفجرها، تعطيها "أمينة" راتبًا كبيرًا يكفي لإعالة أسرة "سماح" بعد وفاة والدها وقيامها بالصرف على تعليم إخوتها وعلاج أمها المريضة، لكن "سماح" لم

تنس النظرات الشاردة لأيمن وهو يدخل المصنع محاطًا بالعشرات من البشر، كانت تتعاطف معه رغم كل ما يقال عنه وتخاف على نفسها من أن يفتح قلبها المملوءة ببحور الورد لابن الأكابر أي قناة فتغرق في النهاية في أوهام قد تؤذيها.

ومع ذلك في اليوم الوحيد الذي طلب منها أن تدبر سفر خاله "عمر" لمدة أسبوع بعد أن استأذن "أمينة" وافقت في الحال، وحين أغلق سماعة التليفون وقالت مع السلامة يا "أيمن" بيه تذكر أمه "جمالات" الشقية التي علمت البلدة الطيبة، كانت ذكرى أمه تأتيه دائمًا كلما رأى أو سمع صوت سماح، وتساءل مع نفسه عن سر رائحتها وشعاع الحب والعطف والود الذي ينزف من عينها والذي لم يحسه إلا بأحضان أمه .

بعد أن دبرت سفر خاله طلب منها "أيمن" أن تأتي بمكتبه لمناقشة بعض الأمور المشتركة بينهم ولإقامة تحالف بين جمعيته وجمعية "أمينة"، وبعد أن أقنع "أمينة" في ليلة كان عنوانها: هل ستضحي بالحب أم بالجمعية؟ فحافظت "أمينة" كعادتها على أنوثتها وضحت بالجمعية لتنعم بليلة أخرى مع أيمن، فعاشرها طائرًا بها لبحور الحب مع ملائكة وشياطين الجنس الذين ابتدعوا الشهوة والرغبة، وكان يأخذها من نهر الورد إلى حديقة العشق ومحيط الفجر.

في هذه الليلة استرجعت كل لحظات الحب التي عاشتها مع عشرات الرجال الذين أذهلهم فرجها المفتوح وأوشة عينيها وهي تتأوه من فرط النشوة، لكنها تركت دون أن تدري لمجرى الحب أن يترعرع بين الجمعيتين بفعل رائحة "سماح" لتتحولا لجمعية واحدة يستولي "أيمن" في النهاية على مجلس إدارتها ويُقعد "أمينة" بالمنزل.

في هذه الأثناء كانت لغة العيون تتشابك بين "سماح" وأيمن ونبت الحب بين القلوب، وبعد أن توقف "أيمن" عن زيارة "أمينة" وري عطشها، فهمت في النهاية

تقلبات الزمن وغدره بعد أن ساهمت دون أن تدري في بناء أواصر قوية بين "سماح" و"أيمن" انتهت بإعلان زواجهما.

لم تكن "أمينة" وحدها هي الخاسرة من الزيجة الجديدة، بل إن "إيمان" مديرة جمعية "أيمن" التي أعطاها خمسين ألف جنيه لتكتب استقالتها من الجمعية بعد ضم الجمعيتين لتديرهما "سماح" وحدها، حاولت في الأيام الأخيرة منع مجرى الحب الجديد من التدفق بعد أن تنكر "أيمن" من علاقتهم، وقال في تبجح: عاشرتك خمس سنوات ولكنك أخذتي الثمن، تركبين سيارة وتملكين شقة وأعطيتك أموالا تكفي لإعانتك العمر كله، لا تكوني طماعة اكتبي استقالتك فليس لك مكان بحياتي أو بالجمعية بعد اليوم.

حاولت أن تذكره بالليالي الجميلة التي قضوها سويًا في المدن المختلفة، حاولت تذكيره برائحة فرجها وثديها حين رآهما أول مرة.. حاولت أن تذكره بأنها العشيقة التي علمته فنون الحب وأوضاعه.. لكنه قال: لم يعد لك مكان بقلبي.

"أمينة" الوحيدة التي تعرف سر مقتل "سيد" المخبر والذي تواطأ أبناء الشيطان عليه ليأخذوا روحه ويلقوا بجثته بمقلب الزبالة، فأكدت في شهادتها أمام النيابة بأن "صبحي المنصوري" الذي كان دائم الحضور لجمعية "أيمن" ولم يجرؤ أبدًا على ملاطفتها بسبب نظرات "أيمن" القاسية ، دبر المكيدة ووافق "أيمن" عليها ليثأر من خيانة "سيد" المخبر لأبيه وعشق زوجته الثانية جهارًا بعلم كل أهالي البلدة.

أكدت بأقوالها أمام النيابة بأن المنصوري وأيمن اتفقا سويًا على قتل "سيد" المخبر لينتقما من ماض موحش ، انتهزوا فرصة اتفاق "أيمن" مع الأب "بيشوي" على بناء كنيسة جديدة بعد ازدياد عدد أبناء الشعب المسيحي وعدم استيعاب الكنيسة القديمة على القيام بدورها في دعم البر والخير.

انتهزوا الفرصة ليسمحوا للشر بالانتشار والحكم على بلدة الحب بالموت وفقدان الهوية كي يستمروا في الحكم والنهب بإلهاء الناس بجرائم تافهة بالمقارنة بتوحشهم.

قالت: سمعت "صبحي المنصوري" في هذا اليوم يقول لأيمن: لن نتركه يبني كنيسة جديدة لأبناء الصليب ويتكاثروا وتقوى شوكتهم ليمنعونا في النهاية من حكم البلدة، وبعد أن أخذ الموافقة من أسياده للتخلص منه، وألهمه جبنه ليضرب عصفورين بحجر واحد فيتخلص من المخبر القديم ومينا الملاك في وقت واحد ويلهي القرية سنين بالحكايات وأحداث كئيبة حبكها بمكتب أيمن.

أكدت "أمينة" أنها تعلم أن المنصوري يوشي للأجهزة المختلفة بفساد "سيد" المخبر وعدم قدرته على ملاحقة وصنع الأحداث الجديدة التي تحكم البلدة مما سهل مقتله.

وأكدت أنها شاهدت "أيمن" وهو يرسم خطة لمقتل أحد شركائه مع مجموعة بلطجية دون أن ترف عينه وقالت: في مساء هذا اليوم كان يعاشرني وعلى أثر تليفون غريب استأذن وتركني دون أن يطفئ ناري، فذهبت وراءه لمقر الجمعية استعطفه ليسهر باقي الليلة معي، فأجلسني بأحد غرف الجمعية حتى ينهي الاجتماع ويذهب بعدها معي لشقتي يفجرني نشوة.

كنت أشاهد خياله وأسمع صوته وهو يقول للبلطجية سوف تلقون النار في شقته ولكن قبل ذلك اقتلوا زوجته وابنه أمامه وأخرجوا قلوبهم وقولوا له: سوف يتعشى "أيمن" بيه بقلوب أبنائك غدًا لأنك تجرأت ورفضت ترك الأرض القبلية في مصنع النسيج ليقيم عليها مدينته السكنية، وحين قال له أحد البلطجية، وهل سنحضر لك قلب ابنه لتأكله فعلا.

أخرج سيفًا من درج مكتبه وقطع رأسه أمام زملائه وفتح كرشه وأخرج قلبه وقال : تعرفون الآن كيف ستحضرون كبد وقلب ابن وزوجة شريكي حتى آكلهما غدًا، قالوا جميعًا: نعم.

خرج من حجرة الاجتماعات ليأخذني في يديه ويذهب لمنزلي يعاشرني كامرأة فاجرة ارتضت معاشرة الشيطان حين قبلت منذ البداية الزواج على أمه "جمالات" الطيبة.

ورغم كل اتهاماتها لأيمن بمحضر الشرطة إلا أن النيابة حفظت التحقيقات ولم تجرؤ على استدعائه في اتهامات زوجة أبيه التي فقدت عقلها، فكيف يمكن أن تذكر امرأة كل تلك الوقائع وتفضح نفسها سوى بفقدانها للعقل.

أعتقد "أيمن" أن مقتل "سيد" المخبر سيسهم بالبدء بمرحلة جديدة لا وجود فيها لـ"أمينة" عشيقته ولا "إيمان" الداعرة وتصور بهذه البداية الجديدة أنه يمحو الماضي ليبدأ رحلة جديدة للحب مع زوجته "سماح" لتعيده مرة أخرى ليفهم حكايات الآباء والأجداد في هذه البلدة التي علمت ونشرت يوما ما الحب والأمان على الجميع.

عاش "أيمن" ثلاث سنوات مع "سماح" يحلم بقدرتها على تعليمه المعاني النبيلة بالبلدة التي فقدتها في يوم غل. لكنها قالت في النهاية : إن الأمان داخلنا ولا نحتاج لأحد كي يعرفنا طريقه، ليس عليك إلا استفتاء القلب.

لم يفهم "أيمن" ما قالته وتركها وخرج دون أن يفهم أن قلبها كـ"جمالات" لا يفهم إلا الحب.

في هذا الوقت اختلت موازين الشيخ "سعدة" للحكم على الأحداث والأشخاص، فبعد أن حوله "سيد" المخبر لمرشد وعينه "أبورواش" إمامًا للمسجد ولم يعد يقدر أو

يفهم المعاني والمسافة بين الخطأ والصواب.. فبعد أن كان يزرع الأرض ويرعى المواشي ويبهج الناس في الطرقات بضحكته وصوته الجهوري، تمكن الشيطان من قلبه ، ولولا أن لحقه "إبراهيم بليلة" يوم محاولته قتل عائلة الزاهرانة لكانت جثته قد مثل بها في ذلك اليوم، ومع ذلك حين ماتت "أم سعدة" وتركت زوجته وبناته معه تحت سقف واحد لم يتحملوا رائحته النتنة أكثر من شهرين فاختل عقلهم تحت وطأة ضربه المتكرر بوجوههم كأنه يعاقب الرب على خلق أجمل الوجوه في منزله بسبب مصيره الذي اختاره كملازم للشيطان.

لم يتحمل عقل سعده كل الأحداث التي مرت بها البلدة، وحين فوجئ يوم حرق الكنيسة بكل هذا الغل من عيون الملتحين وبتواطؤ "صبحي المنصوري" عاد النور لعقله فاقتحم الجمع بعصاته وخلع ملابسه كاملة ليعيد للبلدة مشهد العري حين ذهب لأخذ ثار والده.

ووقف على باب الكنيسة لمنع الملتحين من اقتحامها، كان وجوده بجوار "أم عويس" و"نصرة" و"زعبولا" و"أبورواش" مدعاة للفخر أذهلت "مينا" وهو ينظر من وراء قضبان شباك حجرته التي حبسوه فيها ليصرخ في السماء الصرخة الأخيرة لتعيد الخير وتحمي الناس من الشر.

لكن "سعدة" الذي أصيب بسكاكين وسيوف الملتحين في عقله وقلبه ليموت طاهرًا من كل الشرور التي ارتكبها ، كان قد ترك إمامة المسجد لـ"سالم" صديق "مينا" المحال للمعاش، الذي أجبره "صبحي المنصوري" على الذهاب للقسم كل أسبوع ليحكي عن اهتمامات الناس ويتحول "سالم" الذي كان يرمز للحب مع الأبطال الأربعة الذين دافعوا عن الضريح في يوم ما لمخبر يوشي بأحزان أهله.. فأي قوة وجبروت تحلى بها المخبر الجديد ليحول البشر إلى كلاب !!

الحرق

لم يصدق الناس منظر "أمينة" العجوز وهي تكلم نفسها، بالرغم من أنها حافظت على ملايينها بالبنك إلا أنها لم تعمل حسابًا لغدر الزمن الذي أودى بمصيرها.

صرخت في المارة أمام مقر جمعية "أيمن" ، تركت سيارتها وصعدت لمقر الجمعية وشاهدت "إيمان" بصدرها المفتوح وقوامها الممشوق فابتسمت وقالت بفجر تعرفه أكثر من أية امرأة: "أيمن" بيه فين يا ست إيمان؟

كانت "إيمان" عشيقة "أيمن" قد عادت مرة أخرى لإدارة الجمعية بعد أن طلق "سماح" وطردها بابنها لتعيش مع "جمالات"، واستولت مرة أخرى على إدارة الجمعية وأصبحت هي المتحكم في كل شؤونها، بعد تفرغ "أيمن" لتجارته التي توسعت وأصبحت الجمعية مكانًا لتذكر الناس ببطش "أبورواش" والمتاجرة بأحزانهم وخيانة الزوجة وارتكابها الفاحشة مع ابنه.

استولت "إيمان" على عقل وقلب "أيمن" من جديد الذي لم يعد فيه سوى وأرقام الحسابات فكان يعاشرها بالنهار والليل في فجر اندهش هو نفسه من قدرته على كل هذا التوحش.

تأخذه "إيمان" لمملكة الجنس التي ألهبته وأذهلت ذكورته بأوضاعها ونشوتها لدرجة فاقت الليالي التي فجرته فيها "أمينة" التي ضحت بكل ما تملك من أجل الحب.

مرت تلك الصور في ثوانٍ بذهن "أمينة" لتسأل "إيمان" بلوع عن مكان أيمن، لم تنس "إيمان" أنها كانت خليلة "أيمن" في يوم ما ولم يمنعها جبروتها من معاشرته برغم عدم جواز ذلك شرعًا، فردت مستاءة في قوة وتوحش على "أمينة": مش موجود.

جلست "أمينة" وأشعلت سيجارتها وقالت: اتصلي بيه الخول ده علشان أشوف الجمعية التي ورثها عني وعن ابوه دخلها كام وبتصرف إيه. ردت "إيمان" لتحرق دمها وتسكب عليها النار: أيمن بيه رئيس مجلس إدارة الجمعية لا يعرف شيئًا عنها، وأنا أقدم لمجلس الإدارة الميزانيات في اجتماعاتهم السنوية وأنا المسؤولة عن كل شيء، وإذا كنتي تحتاجينه اذهبي إليه في شقته القديمة واسأليه. وأشارت في لوع لمكان الشقة القديمة ودون أن تنطق قالت: إذا كنتي نسيتي شقته أرسل معكِ أحد الأهالي ليذكرك بمكانها.

صرخت "أمينة": كيف تكلميني يا شرموطة بهذه الطريقة أنتي نسيتي نفسك، أنتي طلعتي نزلتي بتاخذي ثمن معاشرتك له. كسرت "أمينة" بعصاتها التي تتعكز عليها زجاج مكتب "إيمان"، فصرخت "إيمان" وتجمع الموظفون ولولا عشرة منهم منعوا مجرى الشر في هذا اليوم من الانفجار لكانت "إيمان" اصبحت جثة.

بعد أسبوع من اقتحامها مقر الجمعية قامت "إيمان" بتغسل جثته " امينة " واستخراج تصاريح الدفن لها وإحضار المقرئين ليصلوا على روحها بعد أن حرقت شقتها دون أن يفهم أحد كيف تم ذلك؟ ، ورغم وجود "عالية" الشغالة مع "أمينة" في هذا اليوم حتى العاشرة مساءً ولم تترك الشقة إلا بعد أن نامت، إلا أن الجريمة وقعت وقيدت ضد مجهول، حين علم "أيمن" المسافر دائمًا بالخب أعطى أوامره لـ"إيمان" باستخراج تصريح الدفن وإقامة مراسم جنازة تليق بزوجة ابية، لكن الجميع يعلم أن "إيمان" التي تم أهانتها، قد ردت الإهانة بحرقها وحيدة بالشقة.

في هذا اليوم كانت "جمالات" تغني لابن "سماح" حفيدها بعد أن رفضت العيش مع "أيمن" بعد عودته مرة أخرى لأحضان "إيمان" وتسليمها مفتاح الجمعية لتديرها وتستولي على أموالها مقابل ليالي العشق الذي ينعم بها معها، وحين سمعت "جمالات" خبر حرق "أمينة" قالت: الجزاء من جنس العمل.

استعادت "جمالات" صحتها وعقلها بعد بلوغ حفيدها العاشرة وأحست بأنه الشجرة الباقية التي يجب عليها أن ترويها كل يوم لتأديب جيلا آخر يمكنه اعادة ابنها الضائع وأخاها "عمر" الذي مات محسورًا على "مينا".

ترك "عمر" ابنًا جميلاً يكبر حفيدها بثلاثة أعوام، لكن زوجة أخيها التي ظلت صامتة طوال عشر سنين، انفجرت بالشارع في "أيمن" بعد أن مات "عمر" محسورًا، فحين جاءت عينيها بعينه أمام مقر قسم الشرطة قالت : يا مجرم لم يعد لك مكانًا بيننا.

تذكر الناس وقتها مقولة "عمر" حين عاد من السفر ليخلص أخته "جمالات" من سجن "أبورواش": ها أنا قد عدت ولم يعد للمجرم مكان بيننا.

أحضرت "جمالات" العائدة لعقلها العمال لرفع أكوام الزبالة من حول الضريح، ووهبت خمسين ألف جنيه لتجديده، وأحيت المولد الكبير لأول مرة بعد أن نسي الناس عشرين عامًا أن وسط حواريهم الضيقة يقع الضريح الذي كانت بركاته يومًا ما سببًا في خلق الحب والضمير بالبلدة، وأعادت ليلة الموالد من جديد ذكرى "إبراهيم بليلة" و"أبوعيشة" خادم الضريح و"فايز" القسيس.

وجاءت سنية بنت "إبراهيم بليلة" ووضعت الخضار والفاكهة أمام الضريح ليتذكر الناس الحب الذي قدمته أم عويس للأبناء والأهالي، وحين لمح الجميع زوجة "مينا" وهي تسحب ملاك الذي بلغ العاشرة وتحمل فوق رأسها اللحوم والفته ليأكل المريدون والفقراء حول الضريح، علموا أن بركات ساكن الضريح بالأمل والحب سوف تنتصر.

أحضرت زوجة "عمر" الجناينية بمساعدة ابنها "علي" ليعيدوا زراعة أشجار ذقن الجن والشمام بعد أن تفحمت الأشجار القديمة. اندهش الناس مرة أخرى من

"جمالات" الشقية وهي تحتفل في الليلة الكبيرة معهم بمولد ساكن الضريح وإحضارها المنشدين وذبحها ثلاثة عجول ليأكل المريدون ، وجرت تلك الأحداث في غفلة من الزمن أعاد للأذهان من جديد أحداث البلدة الأولى.

العالم الرابع

الضمير

أمشي كثيرًا في الحواري أتفقد مداخل البيوت لأفهم سر ما حدث، الروائح المنبعثة من الأشجار تبهر الناس وتبارك الجميع بعودة المطر في الصيف ليغسل البلدة من جحودها، البنات يقفن ببلكونات المنازل ينتظرن عودة المحبين والناس تبدع في تطهير قنوات الخير التي تخيلوا أنها ردمت للأبد بعد أن تغيرت ملامح وشكل البيوت.

ترك "سالم" البطل الرابع الذي ظل حيًا بعد معركة الكنيسة منزله بعد شجاره الدائم مع أبنائه وزوجته وهرب من الجامع و"صبحي المنصوري" ليخدم الضريح.

ظهرت "جمالات" كامرأة كاملة قوية في هذا العهد وأنشأت من جديد صندوقًا للبر بعيدًا عن الجمعيات التي انتشرت وجنت على البلدان والناس الفقر والذل والحرمان، التفتت النساء والرجال حول "جمالات" لتحقيق أحلامهن.

أبدعت أم "مينا" وزوجة "عمر" وسماح اللتين قررتا التصدي لجبروت "أيمن" و"إيمان" متسلحين ببركات ساكن الضريح فبدأت مع النساء والرجال والأطفال الذين جرح كرامتهم حرق الكنيسة في زراعة أشجار ذقن الجن والشمام بحواري البلدة وحول الضريح.

كانوا يتلمسون بركاته، وهو الميت في ضريحه كي تنتج بذورهم ويعود المحبون لبلدتهم وتتزين النساء من جديد لتبهج السماء بأرق وأعطر روائح الحب.

وضعت سنية بنت "إبراهيم بليلة" أقفاص البرتقال والخضر بجوار الضريح لتحمي الأطفال من العفاريت والجن الأزرق وأمنا الغولة .

شكل "ملاك" بن "مينا" و"علي" بن "عمر" و"مازن" بن"سماح" و"كريمة" بنت "سنية بليلة" فريقًا جديدًا لصيد العفاريت واصطياد طائر الموت الذي كان يهددهم بالخطف.

يحكي "سالم" البطل الباقي من ذاكرة البلدة عن الرجال الأوائل وكيف حافظوا على الأحلام والحب ودافعوا عنها، حتى غادروا البلدة ليحافظوا على أجمل ما فينا، وبقيت ذكرياتهم وحكاياتهم تعيد الأمان على البلدة.

فتحت المصانع المهجورة أبوابها وعادت عربات الفول والبطاطا والترمس والفاكهة تنتشر أمام بوابات المصانع التي تم تشغيلها من جديد لتنتج العمران ويشتري آلاف العمال "البطاطا السخنة" عند تغير "الورادي".

تفتحت البذور بالأرض لتنتج من جديد ثمار البرتقال الذي يشبه المانجو في نهاية الموسم فيأكله الناس ليشفي أرواحهم من الحقد.

تلذذ الجميع بتناول أطباق الفول والبصل والزيت الحار ونعموا بخيرات الله التي خرجت من أرض بلدتنا الطيبة.

أعاد الناس بناء الكنيسة التي حرقت وصمم الاهالي جميعًا على مشاركة البناءين والحدادين والنقاشين والسباكين صنع أجمل الحجرات ودورات المياه والألوان وخلطوا أرواحهم بمواد البناء فظهرت الكنيسة من جديد كأفخم بناء يشع نورًا، ولم يفهم كل الزائرين للبلدة سر البراح والحب الذي تملأ جوانبه قاعة الكنيسة الرئيسية وصورة الرب والأم المعلقين في أعلاها يضخون على الناظرين السكينة والحب.

استمتع الناس مرة أخرى بالبراح حين شاهدوا القس زخاري يجلس مع "سالم" على مصطبة الضريح يحكيان نفس الحكايات القديمة التي كان يحكيها القس "فايز" مع "أبوعيشة" خادم الضريح.

تفرش "سنية بليلة" خضارها بالشارع وعينها على الأطفال وهم يلعبون لعبة "**الغمية**" حتى لا تخطفهم أمنا الغولة في غفوة منها، تلاطفهم وتقول إنها تخبئ شعر مازن الأصفر حتى لا يطمع فيه الجن الأزرق ويخطفونه ويسرقوا عيونه العسلية،.

في هذا الوقت كان "صبحي المنصوري" مشغولا بخدمة سيده "أيمن" وعشيقته "إيمان" مديرة الجمعية التي أنتجت عشرات الجمعيات الأخرى التي لم يكن يهم أعضاؤها شيئا سوى العطاء على طريقة "أبورواش" و"أمينة" و"أيمن" و"إيمان".

في غفلة من بطش المجرم الجديد عاد الضمير للبلدة فقال لنفسه وهو ينظر لجموع الناس من خلف قضبان قسم الشرطة: لا يمكن القضاء على أرواحهم أبدًا.

وحين قابل المنصوري "إيمان" آخر الليل في شقتها خارج البلدة أكد أن بائعي البطاطا مبتهجون آمنون، وهم يقدمون البطاطا الطازة للأطفال أمام الكنيسة والضريح والشارع الرئيسي بالبلد، و"أيمن" بيه في سفرياته مشغول دائمًا ولا يهتم بتزايد أعداد المريدين حول الضريح.

انزعجت "إيمان"، التي كانت تلبس أحلى قمصانها الذي يظهر أفخاذها وثدييها كاملين، بانشغال المخبر ببائعي البطاطا وسفريات "أيمن" وترك أنوثتها تنتحر في يده، فقالت: ألا تشم رائحة فرجي يا "منصوري"، أنا أريدك أن تطفئ ناري. أخذ قرص فياجرا ليطير بها الي خارج البلدة التي توسعت ولم يعد الأمن يتحكم في فتح ابوابها او يمنع طيورها من الغناء، المر الذي أقلق "صبحي المنصوري" وجعله تائهًا ، فرمته "إيمان" أرضًا وركبت فوقه لتطير وحدها وسط الأكابر التي حلمت أن تعيش

وسط قصورهم العالية لتعاشر كل يوم فتي جديدًا تتفجر ذكوريته فيطفئ نار أنوثتها الملتهبة، امتطت "المنصوري" بجبروت حتى صعقته.

حين شاهد الناس في اليوم التالي صور "إيمان" تملأ الميادين لترشيح "المنصوري" لها كعضوه بالبرلمان، وأطلقت حملتها بدعم المنصوري وبمعاونة الملتحين الذين احتلوا المساجد والزوايا لتنظيف شوارع البلدة من الباعة المتجولين وقبضوا على باعة البطاطا ومزقوا عرباتهم وقررو هدم الضريح.

في مساء هذا اليوم قرر "سالم" و"جمالات" و"أم مينا" ترك البلدة والهروب بأحلام الناس ليحموها من الهلاك والنسيان.. لكن "سماح" وزوجة "عمر" رفضتا الخروج وقررتا المكوث والدفاع عن الضريح وأشجاره، ليكتب بعد انتهاء المعارك الجديدة أن صراعات هذه البلدة لن تنتهى أبدًا.

الوراق

٢٠٠٨